سعيد الأفغاني

الإسلام والمرأة

دار الفكر

الطبعَة الثالثة
١٣٨٩ - ١٩٧٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى سائر الأنبياء والمرسلين والصحابة والتابعين .

وبعد ، فقد كنت لاحظت[1] أن الانسانية تعاني في هذه السنوات، موجة من التعصب للعنصرية ، وتحشد بعض الأمم الراقية حملة منظمة يشترك فيها رجال العلم والأدب والادارة والجيش: لاقامة البراهين على أن دمها ممتاز من سائر دماء البشر ، وأن شعبها بحكم الجبلّة وجد ليكون أرقى الشعوب وحاكمها ، مسخرين في ذلك أمانة العلم وذمم العلماء . ولست بصدد الدعوة إلى شيء من هذا ، لأني أرى من الخير للانسانية أن يبقى حرم العلم مصوناً من العبث ، سامياً على جميع الاعتبارات ، يُخضع ولا يَخضع ، ولا خير في مجد زائف يروّج له الباطل ويدعمه البطر المتكبر . هذا إلى أننا قد أغنانا الله عن ذلك كله بأمرين اثنين : أولهما الإسلام الذي قضى على فوارق الدماء وميزات العناصر ، فجعل الناس متساوين أحراراً ، وثانيهما أنه أودع أمة العرب من المزايا العريقة الخالدة ما جعلنا في غنىً عن جميع المحاولات والادعاءات،

---

(١) مجلة العالم الاسلامي البغدادية ، السنة الاولى ص ٩٨

مزايا يفنى الدهر ولا يقضي أهله منها عجباً .

فحسبي إذاً من خطة : أن أقرر واقعاً وأبين عن حق . فلا أتكلف اختلاق حسنة ولا محو سيئة ، مستنداً على ماثبت لدي من حقائق . وسواء عليّ بعد : أنسبت إلى شعوبية أم غلو في عروبة ، ما دمت راعياً للعلم أمانته باخلاص، بريئاً — على قدر طاقتي — من هذه الموجات العصبية الطاغية .

وقد جعلت جل اعتمادي في هذا البحث ، على مصدرين اثنين هما القرآن الكريم والحديث الصحيح ، ضارباً صفحاً عن قصص وأخبار مستفيضة في كتب السير والأدب : هي على كل حال لم تدخل حرم التاريخ ، فهي عند بعض الناس أساطير وعند بعضهم مبالغ فيها . ومن حسن التوفيق أني وجدت ضالتي كلها في هذين المصدرين الخالدين . ولن يتطرق شك إلى أنهما يصوران أحداث عصرهما التصوير الصادق الصحيح ، أجمع على ذلك كل الباحثين على اختلاف أديانهم وأجناسهم ومنازعهم نحو الاسلام .

★ ★ ★

كان من يحاول الكتابة في موضوع المرأة الشرقية ، يعنى برد المفتريات (الاستشراقية والتبشيرية) التي يزجيها كتاب الغرب عن يمين وشمال ، تعصباً وسوء نية : أو لقلة اطلاعهم وقصور نظرهم وفقدانهم

الأدوات الكافية التي تؤهل صاحبها لإصدار آراء صحيحة .
والموضوعات الإسلامية لا يُهجم عليها بقراءة بعض مصادر غريبة مترجمة ، ولا على أثر رحلات خاطفة سريعة ، يعقبها إرسال الأحكام هكذا إطلاقاً بغير حساب ، معممة شاملة كل عصر ومصر . وكثيراً ما كان يكتفي أمثال هؤلاء الباحثين من دراسة المجتمعات الاسلامية ، بنظرة عجلى يلقونها على نظام (الحريم) التركي الذي كان قديماً في (إستانبول) وكفى الله المؤمنين القتال !

هذه العناية من كتابنا برد الشبهات (المغرضة) هي الجواب الطبيعي على حملات الجاهلين من جنود التعصب الذميم ، وقد كثر هذا وذاك ، منا ومنهم ، حتى مُلّ ، وحتى عرف كل متعلم أن تلك المفتريات — وإن أضفوا عليها ثوب البحث — لاتستند إلى واقع صادق ولا علم صحيح ، فلم تعد حاجة بنا اليوم — وهذه درجة المتحاملين من الجهل وسوء الطوية — الى الاشتغال بالجدليات ، فأسقطناها من بحثنا اكتفاء بما استفاض من العلم بين الناس من جهة ، وبما جرى عليه العمل من جهة أخرى في كثير من أمم المتحاملين : من إقرار الطلاق رسمياً لضرورته الشديدة ، ومن استغنائهم عن تعدد الزوجات الشرعي بتعدد الخليلات على صورة لا رسمية ولا شرعية . والطلاق وتعدد

الزوجات هما الأمران اللذان بنى عليهما المتحاملون أكثر حملاتهم على نظرة الإسلام إلى المرأة . وإذا عرفت أن الطلاق والتعدد لايشير بهما الشرع إلاعند الضرورةالقصوى،والحاجة الملحة ، وبشروط مقررة[1] وأن الأوروبيين والأميركيين لاشروط تقيدهم في ذلك ، أيقنت أنهم في الماضي والحاضر ما زالوا بين تفريط وإفراط ، وأنهم لن يرجعوا إلى الخطة المثلى إلا بعد أزمان متطاولة تنضج فيها تجاربهم في هذين البابين .

★ ★ ★

خطة الدفاع التي اتخذها مؤلفونافيموضوع المرأة ، حسّنت لهم أن يحشدوا من أمجاد المرأة العربية في جميع عصورها أكبر مقدار تيسر لهم الاطلاع عليه،وعلى غزارة ما تجد في بعض هذه المؤلفاتمن مواد ، لاتستطيع أن تخرج منها بفكرة شاملة صحيحة عن صنيع الإسلام بالمرأة : كيف أنقذها ؟ وإلى أين سما بها ؟ بل إنك لتجد في أكثرها كلاماً عاماً خطابياً يعوزه الصحة والسند والشاهد .

---

(١) شروط تعددالزوجات من الصعوبة بمكان حمل المعتزلة على القول بتحريمه لاستحالة تحقيق العدل بينهن في رأيهم على ماروى السيد أمير علي الهندي في كتابه « مركز المرأة في الاسلام » ص ٢١ .

أما الطلاق فلم يستحبه الاسلام إلا حين استحالة معيشة الزوجين معا وبعد إخفاق كل الجهود .

فرأيت أن أحاول ـ على ضعفي وقلة بضاعتي ـ دراسة المرأة العربية بين جاهليتها وإسلامها، دراسة تستند إلى النصوص المجمع عليها والوقائع الصادقة المتواترة ، مقتصراً على عصرها الأول وهو للمرأة العربية عصرها الذهبي بلا مراء ، إذ فيه رفع الإسلام من النساء طبقة رفيعة مختارة ، جعل لها من السمو والتقديس والاحترام : منزلة دون الأنبياء وفوق الخلفاء ، وحسبك بهذا تشريفاً لمقامها إلى الأبد .

ليس من موضوعنا في هذا البحث إذن : الكلام على المرأة في أعصرها التالية ، حين بدأت (عملية الاختلاط والتفاعل) تتسع وتعمق ، وتستسر وتستعلن ، بين العرب والفرس : في الدم والعادات والتقاليد وأنماط العيش ؛ وحين أفسدت العادات الفارسية الرجل والمرأة معاً . وأتمنى أن يتاح لنا باحثون يقفون أنفسهم على إخراج بحوث متسلسلة تصور حال المرأة العربية عصراً عصراً حتى أيامنا هذه. ولا أجهل ما في ذلك من صعوبات وعقبات ؛ وما يحتاج الاضطلاع به من اطلاع كاف على التاريخ الاجتماعي لكل عصر والتنقيب على أحوال الأسر وطرز حياتها في كتب التاريخ والادب والمحاضرات ،ثم دراسة كتب الفقه المؤلفة في كل عصر على حدة — وهذا وحده يقتضي همة وإرادة وصبراً طويلا — ... نعم ، أعلم حق العلم مافي ذلك كله من عناء

وما يتطلبه من سعة علمٍ ونضج إدراك ، ودُرْبة في الاستقراء والاستنتاج ، وفقه جيد بالمظان وقيمتها ، كما أني أعلم أيضاً ما في ذلك لنا من خير كثير ، إذ نتعرف بذور الفساد وبوادر الانحطاط ، كما نلمس دوافع التقدم وعوامل السمو . فنستطيع أن نزن خطواتنا ونسير على هدى وبصيرة في نهضتنا هذه الحديثة .

أما أنا فأعتقد أن عصر صدر الإسلام هو العصر الوحيد الذي سلم من تسرب العادات والتقاليد الاجنبية بالنسبة للمرأة ، وأنه هو وحده عصر المرأة العربية الخالصة ، كما كان فهم أهله للاسلام وروحه هو الفهم الصحيح .

ولا يفوتني هنا النص على أن التشريع النسائي والوصايا بالنساء كثرت في القرآن الكريم والحديث الشريف كثرة تسترعي الانتباه ، صيانة للمرأة من جوْر العرف والمواضعات وتقلباتها في المستقبل ، وحفظاً لمقامها الاجتماعي عن الابتذال المحاط بالمجاملة والرياء على نحو مانرى في المجتمعات الغربية ، فهناك احترام ظاهر لها ثم ابتذال غير رحيم . ولعلنا شاهدنا في أيامنا هذه عوامل الانحلال في كيان الاسر عند بعض الأمم : كيف أعقبها انحلال هذه الأمم نفسها . والإسلام كان جاداً كل الجد حين لم يعبأ بهذا الرياء المصطنع وأراد للمرأة حماية

ومنعة حقيقيتين ، فجعل الصيانة هي المحور الذي تدور حوله أكثر الأحكام وذلك ماستراه في هذا الكتاب إن شاء الله .

ليس من خطتنا إذاً في هـذه الدراسة ، أن نحكم على المرأة المسلمة بما استفاض في بعض الأمصار زمنـاً من الأزمان ، ولا أن نعتمد على الأفهام الأعجمية الغريبة كل الغربة عن الإسلام وروحه وجوه ، ولا على الدراسات المرتجلة التي لم تعن بالحاق كل ظـاهرة بأصلها وزمنهـا وأصحابها... إنما النهج القويم لطالب الفهم الصحيح لنظرة الاسلام إلى المرأة ، أن يتحراه في مصادر الإسلام الأساسية ومنابعه الرائقة وبيئاته الأصلية وعند أهله الأولين ، قبل أن تشوب المجتمع العربي الشوائب الأجنبية ، وتفسده العناصر الدخيلة وزيف الحضارات المتفسخة. وعلى من أراد شهود الماء على حقيقته الصافية أن يقصد ينبوعه ، فثمة طبيعته الخالصة وطعمـه الصادق ولونه الرائق ؛ أما رؤيتـه في النهر بعيداً من منبعه فلا توحي للمشاهد بحكم صحيح ، لأنه يراه بعد أن انصبت عليـه الروافد المختلفة واختلط بمياه السيول وحمل كل مارموا إليه من أقذاء.

★ ★ ★

كان هذا الكتاب في الأصل تمهيداً ومدخلاً لدراسة واسعة عن السيدة عائشة ، ولقد يسر الله إعادة كتابته بعد فقدان الأصل ، وهو أساس وتمهيد لكل دراسة عن المرأة العربية خاصة والمسلمة عامة ، جعلته بابين : الأول في (المرأة العربية في نشأة الإسلام) ، والثاني في الطبقة المختارة من النساء ، اللائي كن موضع احترام الناس كافة رعاتهم ورعيتهم ، وهي : أمهات المؤمنين . وعنيت ببيان الشخصية الحقوقية للمرأة في المجتمع الإسلامي كما عنيت ببقية نواحيها ، وأكثرت — عن عمد — من الشواهد والوقائع والنصوص لتكون الأحكام برهانية لا خطابية .

فان وفقت بعد هذا في محاولتي فالحمد لله ، وإن قصرت فشفيعي عند نفسي أني بذلت مخلصاً وسعي وهذا جهد المقل وأسأل الله المعونة والتأييد .

سعيد الافغاني

دمشق

ربيع الأول ١٣٦٤ هـ

آذار ١٩٤٥ م

الباب الأول

المرأة العربية في نشأة الإسلام [1]

يكاد العصر الذي نشأ فيه الإسلام يكون معلوماً بالضرورة لكل من ضرب في الثقافة بسهم ، مسلماً أو غير مسلم ، عربياً أو أجنبياً ، يدرسه طلاب مدارسنا في تاريخنا القومي ، ويلم به طلاب العلم في أقطار الأرض حين يقرؤون التاريخ العام ، لأن الاسلام أهم الحوادث الكبرى التي غيرت وجه التاريخ : بعث أمة حكمت العالم المتمدن قروناً ، ووطد حضارة ، ونشر ثقافة ، وأحيا أمماً ، وقرر للانسانية الراشدة نظامها الخالد .

لهذا أستغني الآن عن تمهيد ترسم فيه الخطوط البارزة للحياة في ذلك العصر ، إذ لا يجهل أحد عصر النبوة والراشدين ومعاوية ، مؤثراً أن ألم إلمامة قصيرة بالحال الجديدة التي قررها الإسلام للمرأة بعد أن نعرف شيئاً عن المرأة الجاهلية التي وجدها الإسلام أمامه حين بزغت دعوته .

---

(١) لخصت من هذا الباب محاضرة ألقيتها في المجمع العلمي العربي بدمشق في ١٦ من ذي القعدة سنة ١٣٦٠ هـ = ٥ كانون الاول سنة ١٩٤١ م) .

الفصل الأول

المرأة في الجاهلية

درج الجاهليون في علائقهم بالمرأة على أحوال يصعب معها إطلاق الحكم إطلاقاً عاماً ، فهم يحترمونها في نواحٍ ويمتهنونها في أخرى . والحق يقتضينا أن تكون نظرتنا عامة شاملة : فلا يصح أن نحكم على حال المرأة — كما فعل فريق من الباحثين — ببعض نساء الأشراف المحترمات كماوية امرأة حاتم وهند زوج أبي سفيان وخديجة بنت خويلد مثلاً ، كما لا يصح أن نشايع فريقاً آخر كان إلى الجوْر المحض حين اتخذ بعض نساء البداة والعوام الخشنين القساة مثلاً لنساء الأمة كلها .

المرأة العربية والرومانية والفارسية

ونحن مع تقريرنا أن المرأة العربية في القرنين السادس والسابع للمسيح أهنأ حالاً وأقرب إلى الاحترام في الجملة من المرأة في بقية الأمم حتى المتحضرة منها كالرومان ، مع هذا لانجد محيصاً عن ذكر الحيف الذي عانته بعد شرح الرعاية لها .

فبينما كان للروماني وغيره قبل النصرانية الحق في أن يقتل

زوجته؛ كما له الحق في قتل عبيده[١] وبينا نرى الأمم الأوربية

---

(١) انظر مثلا : الاسلام والحضارة العربية ١ : ٨٠ ، ٩٤ ـ هذا ولا بأس هنا من إلمامة سريعة بنظرة أمم الحضارة يومئذ (الرومان والفرس وقبلهم اليونان) إلى المرأة : اعتبر الاثينيون (وهم أكثر الامم القديمة مدنية) المرأة من سقط المتاع، فقد كانت تباع وتشرى في السوق لامنزلة لها ، وكان يحق للاثيني أن يتزوج بأي عدد شاء من النساء . أما اسبارطه فلا تسمح للرجل باكثر من زوجة ، أما المرأة فلها أن تتزوج بأكثر من واحد وكانت جميع النساء يمارسن هذه العادة .

وفي بلاد الرومان كان التعدد ـ دون قيد ولا شرط ـ معمولا به ، ومع تحريم الامبراطور جوستنيان التعدد بقي شائعاً ، وكانت الزوجة الاولى تتحكم بالبقية ، وليس لهن حقوق ، ولكن ذليلات وأولادهن سقط المتاع في الهيئة الاجتماعية : لاميراث ولا حقوق . ـ انظر (مركز المرأة في الاسلام ص ٣٥ ـ ٣٨) للسيد أمير علي الهندي طبعة سنة ١٩١٢ .

أما المرأة الفارسية ـ وهي التي صار لها فيما بعد أكبر الأثر في انحطاط المرأة العربية ـ فقد كانت عبدة سجينة لامنزلة لها ، تباع بيع السلع ، وقد أباحت الانظمة الفارسية بيعها وشراءها . وشر من ذلك كلـه انها اباحت ـ على مايقول الـكاتب الروسي اغابيف ـ الزواج بالامهات والاخوات والعمات والخالات وبنات الاخ وبنات الاخت ... ومتى حاضت المرأة ابعدوها عن المنازل وجعلوها في خيام صغيرة في ضواحي المدينة : لايخالطهن احد ، حتى الخدم يلفون مقدم انوفهم وآذانهم وايديهم بلفائف من القماش الغليظ عند تقديم الطعام لهن حذر أن يتنجسوا إذا مسوهن او مسوا الاشياء المحيطة بهن حتى الهواء .

والمرأة الفارسية تحت سلطة الرجل المطلقة ويحق له أن يحكم عليها بالموت دون رقيب أو مؤاخذ ، يتصرف بها تصرفه بسلعته ومتاع بيته . ـ انتهى بتصرف يسير عن (حقوق المرأة في الاسلام) تأليف أحمد أغا ييف وترجمة (سليم قبعين) سنة ١٩٠٥ .

حتى بعد النصرانية بقرون تدأب على ازدراء المرأة والانحطاط بها عن مستوى البشر ، واعتبارها مصدر الشرور والآثام وأنها مخلوق لا يستحق غير اللعنة . . . إلى أمور أخرى يعرف تفصيلها كل من ألم بالتاريخ العام . . . ، بينا كان ذلك كله رأينا العربي قد سما بفطرته في بعض الحالات ، فمجد المرأة في جاهليته ، وناجاها في سره وعلنه، ونظر إليها فوضعها في منزلة تسامي منزلة الرجل في كثير من الأحيان .

والظاهر أن هذا لم يقع إلا بعد أن شاع في العرب في زمن متقادم امتهان المرأة وقتاً يسيراً ، حتى اضطرت حكمتهم أن تصحح خطيئتهم تلك فتقول : (المرأة من المرء ، وكل أدماء من آدم) وهذا أقدم مثل قالته العرب على مازعم الميداني في (مجمع الامثال) .

* * *

تولد الأنثى ، فيشعر والداها بخيبة ، فان تظاهرا بالفرح كان فرحاً واجماً يختلف عن المفارح التي تقام لولادة الذكور . وهذا شيء في طبيعة الناس كافة باديهم وحاضرهم : يتمنى كل والدين على الأرض أن يكون مولودهما ذكراً ، فلا سبيل إلى إفراد العرب بالإنكار إلا فيما جرت عليه عادة بعض القبائل من وأد قبيح نحن عارضون له بعد قليل .

وتعني الأم بطفلتها عنايتها بطفلها ، ويغلب أن يكون نصيب الأنثى

إذا عاشت من عطف أبويها أكثر ، ورحمتهما لها أشد لضعفها وخير ما يمثل لنا هذه العاطفة قول اسحاق بن خلف :

لولا أُمَيمة لم أَجزع من العدم ... ولم أقاس الردى في حِندِسِ الظُلم

وزادني رغباً في العيش معرفتي ... ذل اليتيمة يجفوها ذوو الرحم

أحاذر الفقر يوماً ان يُلم بها ... فيهتك الستر من لحم على وضم

تهوى حياتي وأهوى موتها شفقاً ... والموت أكرم نزّال على الحرم

أخشى فظاظة عم أو جفاء أخ ... وكنت أبقي عليها من أذى الكلم

وقول حطان بن المعلّى :

لولا بُنيّات كزُغب القطا ... رُدِدْن على بعض إلى بعض

لكان لي مضطرَب واسعٌ ... في الأرض ذات الطول والعرض

وإنما أولادنا بيننا ... أكبادنا تمشي على الأرض

لو هبتِ الريح على بعضهم ... لامتنعت عيني من الغمض

حتى إذا بلغت مبلغ النساء كان لها محض الإرادة في اختيار الزوج إلا فيما ندر ، فان أنسلت تمت لها المكانة المرموقة في النساء والعربيّ شديد الاحترام لأمه ، كثير الحدب عليها وعلى صيانتها ، ويطيب له أن يتمدح إلى النساء ببطولته وأمجاده ، فهو كلما استبسل في قتال او سابق إلى مكرمة فجاشت نفسه بشعر ، بدأ بالمرأة فأشاد

بها ثم احتكم إليها فذكر مفاخره وأفعاله. وشواهد ذلك كثيرة مستفيضة، لقد كان فرسانهم ينزلون إلى حومة الوغى وألسنتهم رطبة بذكر صواحبهم أو أخواتهم أو أمهاتهم، يرتجزون متحمسين طالبين إلى هؤلاء النسوة أن يشهدن شجاعتهم واقتحامهم الغمرات في سبيل مجدهم ومفاخرهم، وما أكثر ما تجد في الشعر الجاهلي من مثل قول عنترة:

هلا سألتِ الخيل يا بنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلمي

يخبرْك من شهد الوقيعة أنني أغشى الوغى وأعف عند المغنم

وقول بُكير أحد بني الحارث بن عباد، يمدح الأبطال بني شيبان في يوم ذي قار: اليوم الذي وقف فيه جبروت الفرس وطغيانهم يتحدى شهامة العرب ووفاءهم، فأدال الله للخلُق الكريم من الظلم الغاشم ونصر الفضائل العربية على الاستبداد الفارسي، واغتبط فيه كل عربي في الحواضر والبوادي حتى سواحل اليمن، معتزاً: أن أدال الله للعرب على العجم:

إن كنتِ ساقيةَ المدامة أهلها فاسقي على كرمٍ بني همّام

ضربوا بني الأحرار يوم لقوهمُ بالمشرفيِّ على مقيل الهام [١]

(١) تاريخ الطبري ١ : ٦١٢ (مطبعة الاستقامة ـ مصر سنة ١٩٣٩ م) وبنو الأحرار: هم الفرس.

وقول الآخر في يوم ذي قار أيضاً :

إن كنتِ ساقية يوماً على كرم　　فاسقي فوارس من ذهل بن شيبانا
واسقي فوارس حاموا عن درياهمُ　　واعلي مفارقهم مسكاً وريْحانا

وحتى لما جاء الإسلام وانبثت جيوش العرب تكافح الظلم في سورية والعراق ، صرت تسمع تمدّح الفرسان بضروب شجاعتهم للنساء ، استمراراً لعاداتهم القومية قبل الإسلام ، ففي حرب القادسية ترى أمثال قول القائل :

حييتِ عنا عكرمَ ابنة خالدِ　　وما خير زاد بالقليل المصرّد
وحيتكِ عنا عصبة نَخعية　　حسان الوجوه آمنوا بمحمد
أقاموا لكسرى يضربون جنوده　　بكل رقيق الشفرتين مهند (١)

وفي حرب اليرموك بالشام ، لم يكن الأبطال الفرسان لينسوا المرأة في ارتجازهم متحمسين ، فقال القعقاع بن عمرو حين كرّ على الروم :

ياليتني ألقاكِ في الطرادِ　　يوم اعترام الجحفل الورّاد (٢)

---

(١) الطبري ٣ : ٨٣ هـذا وقد كان مع الجيوش المجاهدة نساؤهم فكان مع قبيلة بجيلة ألف امرأة ومع قبيلة النخع سبعمائة امرأة على ماذكر الطبري . لقد كان نصيب المرأة من النصر يومذاك عظيما جداً

(٢) الطبري ٢ : ٥٩٤

وارتجز عكرمة بن أبي جهل وقد حمي حميه :

قد علمت بهكنة الجواري أني على مكرمة أحامي ... الخ[١]

لقد كان الفارس العربي يعد إعجاب المرأة به خير مكافأة على بطولته واقتحامه الموت .

واذكر إن شئت قول حاتم المشهور لزوجه ماوية يتمدح بشمائله ويذكرها في صدر كثير من أبياته :

أماويّ إن المال غاد ورائح ويبقى من المال الأحاديث والذكر

أماوي إني لا أقول لسائل إذا جاء يوماً : حلّ في مالنا نزر

أماوي ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت نفسي وضاق بها الصدر

إلى اخر الأبيات التي يذكر ماوية في صدر كل منها .

وإن شيوع الغزل في كل قصيدة جاهلية مهما كان موضوعها والباعث على قولها ، لخليق أن نقف أمامه وقفة طويلة متأملين ملاحظين ، فما كان هذا ليكون لولا أن المرأة تشغل في المجتمع العربي منزلة هامة يتجمع حولها كثير من الشؤون ، وهو في الوقت نفسه دليل على ما تحتل من عقل العربي وقلبه .

والعرف العربي لا يجوز تعريض النساء للمخاوف والتهديد ، ويفرض حمايتهن وفداءهن بالروح ، ويحتقر كل من تهاون بصيانتهن

---

(١) الجزء نفسه ص ٥٩٥ والبهكنة : الجارية الغضة المنعمة .

أو تردد في الموت دونهن . أما من قتل امرأة أو حمل عليها أو تمدّح بغلبته عليها فيكاد لا يعرفه المجتمع العربي البتة ، بل العادة ألا يُقابَلن بالمثل إذا بدأن بضرب أو شتم ، والمثل المشهور « لو غير ذات سوار لطمتني »[1] نص قاطع في هذا الشأن .

صفات المرأة الجاهلية جملة

تتميز المرأة الجاهلية في الجملة بخلال ثلاث : العفة ، والفصاحة ، وحسن التربية لبنيها . وإن الرجولة الطافحة في بلاد العرب مدينة بالشيء الكثير للمرأة إن لم تكن مدينة لها وحدها بكل صفاتها من مروءة وشجاعة وكرم ونجدة . وأصبح اختيار الأمهات أول مايفكر فيه الجاهلي إذا ابتغى النجابة لأبنائه ، حتى صح أن يكون رأس مايمن به الرجل على أبنائه إذا كبروا هو حسن اختياره لأمهم :

وأول إحساني إليكم تخيري ... لماجدة الأعراق بادٍ عفافها

هذا مارأيت أن قبائل العرب كافة تكاد تجمع عليه في نظرتها إلى المرأة ، وأصبح نتيجة محتومة لما تقدم أن ينبغ في النساء أعلام كثيرات مشهورات ، فكان منهن ذوات الرأي والنفوذ ، كما كان

---

(١) قاله حاتم الطائي : وذلك أنه مر ببلاد عنزة في بعض الأشهر الحرم ، فناداه أسير لهم « يا أبا سفانة أكلني الإسار والقمل » فقال « ويحك أسأت إذ نوهت باسمي في غير بلاد قومي » فساوم القوم به ثم قال : « أطلقوه واجعلوا يدي في القد مكانه . » ففعلوا ، فجاءته امرأة ببعير ليفصده فقام فنحره ، فلطمت وجهه فقال : « لو غير ذات سوار لطمتني . » يعني أنه لا يقتص من النساء

منهن الشواعر والكواهن والزواجر والمربيات. وأصبح نتيجة محتومة أيضاً أن تكون مكانة المرأة واحترامها والذود عنها وعن شرفها سبباً مباشراً وحيداً في إنشاب حروب طاحنة: فحرب ذي قار شبت بسبب صيانة النعمان بناته عن تزويجهن من الفرس، وحرب البسوس التي دامت أربعين سنة التهمت الأخضر واليابس وكاد الفريقان فيها يفنيان نشبت حفظاً لجوار امرأة، وحرب الفجار الثاني في عكاظ كانت أيضاً انتصاراً لكرامة امرأة[1] ...

كانت المرأة الجاهلية تعاني — عدا شؤون بيتها من رعي وحلب وطبخ وتربية أطفال ومساعدة الزوج في مهنته — بعض الصناعات كالغزل والتجارة والكهانة والزجر واللهو أحياناً، أما في الحروب فكان إليهن التمريض والعناية بالجرحى وسقي الماء وتحميس المحاربين.

••••
••••

(١) انظر كتابنا (أسواق العرب في الجاهلية والإسلام) ص٣١٢ و ص ٣٠١ (طبعة ثانية: مطبعة دار الفكر سنة ١٩٦٠)

الفصل الثّاني

مظالم الجاهلية للمرأة

تشاؤمهم بالأنثى

فلننظر الآن في بعض ما لحقها من شدة وحيف عند بعض قبائل العرب :

كثير من أهل الجاهلية تطيَّر من المرأة فامتهنها وعدّها أداة شر، وكان بلاءه الأكبر أن تولد له أنثى . وهؤلاء فريق غلوْا في كرههم الأنثى حتى كان ما قصه الله علينا من أمرهم من شهوتهم البنين وكرههم البنات :

« وَيَجْعَلُونَ للهِ البَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم ما يَشْتَهُونَ »(١)

ويجعلون الملائكة بنات الله :

« وَجَعَلُوا المَلائِكَةَ الذينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمٰنِ إِناثاً،أَشَهِدوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهادتُهُمْ ويُسْأَلونَ »(٢).

وقال تعالى واصفاً حالهم معرّضاً بهذا المثل الذي جعلوه لله:

وإذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَاضَرَبَ لِلرَّحْمٰنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ »(٣)

---

(١) سورة النحل الآية ٥٧ (٢) سورة الزخرف ٤٣ الآية ١٩

(٣) سورة الزخرف الآية ١٧

وقال في موضع آخر :

وإذا بُشِّرَ أحدُهُمْ بالأُنْثى ظَلَّ وجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ . يَتَوارى مِنَ القَوْمِ مِنْ سُوءِ مابُشِّرَ بهِ أَيُمْسِكُهُ على هُونٍ أمْ يَدُسُّهُ في التُّرابِ أَلا ساءَ ما يَحْكُمُونَ . » [1]

الوأد

هـذا الغلو في كره الإناث أدى إلى العادة المشؤومـة وهي وأد البنات ، فكانت بعض قبائل العرب كربيعة وكندة وتميم [2] تئدبناتها خوف أن يجرهن الفقر إلى العار والفضيحة ، بـل إن بعض العلماء ذهب إلى أن الوأد كان في عامة قبائل العرب وأنه « يستعمله واحـد ويتركه عشرة . » [3]

وهـذا — إن صح — يدل على أن الوأد كان فيهم بنسبة واسعة هائلة ، بحيث تصبح الجزيرة مسرحاً لمجازر بشرية كل يوم . وقـد ذكروا أن رجلاً واحداً هو قيس بن عاصم المنقري وأد بضع عشرة من بناتـه في الجاهلية ، فلما أسلم قال يوماً للنبي ﷺ : « إني وأدت اثنتي عشرة بنتاً أو ثلاث عشرة بنتاً . » ومع أن الإسلام يجبّ ماقبله، لم يشأ النبي إلا أن يعظم عليه ما أتى ، وأن يفرض عليه كفارة تقابـل فعلته فقال له : « أعتق عن كل واحدة نسمة . » [3]

---

(١) سورة النحل الآيتان ٥٨ ، ٥٩ (٢) بلوغ الأرب ٣ : ٤٢ .

(٣) المصدر نفسه ص ٤٣ وأسد الغابة ٤ : ٢٢٠

ولأمر ما كان من جملة ما بايع عليه النبي ﷺ النساء يوم فتح مكة : ألا يقتلن أولادهن [١]

وهذا المنكر وإن كان مصدره الاغراق في فضيلة العفة ، تعافه الطبيعة البشرية وتتبرأ من قساوته وشناعته «وإذا المَوْؤودَةُ سُئِلَتْ : بِأيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ؟ » [٢] شاعت هـذه العادة ، ولا يعلم إلا الله كم ذهب ضحاياها من البريئات ، وكم اقشعر لهول هذه المشاهد كل يوم من قلوب وأكباد ، حتى أدرك الله تلك القبائل بالاسلام .

السبي.

وإلى جانب هـذه العادة القبيحة عادة الوأد ، نرى عادة السبي : فقد جرى أكثر الجاهلين على عد المرأة كالمتاع الجامد الذي ينهبونه من أعدائهم ، فاذا كانت الغارة حمل كل فارس ما قدر عليه من النساء والذراري ، فكانوا جميعاً ملكه يتصرف فيهم كما يشاء من بيع وتمتع وامتهان واسترقاق ، غير آبه لأطفال حرموا أمهم . وأمٍّ أصبحت بلا أطفال ، فقطّعوا بذلك الارحام وأفسدوا الأنساب .

---

(١) تاريخ الطبري ٢ : ٣٢٨ ومن طريف ما يروى بهذه المناسبة أن هند بنت عتبة زوج أبي سفيان كانت من جملة المبايعات ، بعـد ما كان منها ما كان يوم أحد من المداوة للرسول والمسلمين ، حتى لاكت كبد حمزة عم الرسول انتقاماً لمن قتل من أهلها يوم بدر. فلما أخذ الرسول البيعة على النساء ووصل إلى قوله (ولا تقتلن أولادكن) أجابته هند : « قد ربيناهم صغارا وقتلتهم يوم بدر كباراً ، فأنت وهم أعلم . » وكان عمر حاضراً فضحك حتى استغرب

(٢) سورة كورت (٨١) الآيتان ٨ ، ٩

بل بلغ امتهان المرأة عند بعضهم أن كان الرجل إذا مات صديقه قال: « أنا أحق بامرأته » ثم ضمها اليه فاما اختارها لنفسه وإما زوّجها واستولى على مهرها. اذكر هذا وقابله بما تمتع به بعض السيدات العربيات أيضاً من تطليقهن أزواجهن متى شئن، تجد بوناً شاسعاً بين المنزلتين، وتوقن معنا بما قدمنا لك من صعوبة إطلاق الاحكام إطلاقاً عاماً.

وراثتهم النساء مع المتاع

وأسوأ من ذلك أن الرجل منهم إذا مات ورث ولده — فيما يرث من متاعه — زوجاته جميعاً فتمتع بهن كما كان يتمتع أبوه. أضف إلى ذلك زواج المتعة المنتشر حينئذ بلا قيد ولا شرط. وتصور بنفسك المستوى الذي انحطوا بالمرأة إليه.

أما الشر الذي استمر أكثر من كل هذه الشرور المتقدمة، والذي عاش حتى زمننا هذا دليلاً على عدم استئصال الإسلام لعادات الجاهلية في بعض القبائل فهو: حرمان النساء ميراثهن.

حرمانهن الارث والمهر

والواقع أن مظالم الجاهلية للمرأة أبادها الإسلام جملة واحدة حتى قال عمر بن الخطاب: « والله إن كنا في الجاهلية مانعد للنساء أمراً حتى أنزل الله فيهن ماأنزل، وقسم لهن ما قسم. » ولكن بعض العادات كانت في فريق من قبائل العرب من التمكن بحيث لم يستطع إسلامها السطحي الذي دانت به أن يجتثها. والقرآن الكريم نفسه نص على عدم تمكن الدين من كثير من الأعراب فقال: « اَلْأَعْرَابُ أَشَدُّ

كُفْراً وَنفاقاً وأجْدَر ألا يَعْلموا حُدودَ ما أنزلَ اللهُ على رسوله وَاللهُ عَليمٌ حَكيمٌ . ومنَ الأعْرابِ منْ يتَّخذُ مايُنفقُ مغرماً وَيترَبَّصُ بِكمُ الدوائرَ . . »[1] .

وقال :« قالَتِ الأعرابُ آمَنَّا ، قُلْ لم تُؤمِنُوا ولكنْ قُولوا أسْلمنَا ولمّا يدْخلِ الايمانُ في قُلوبكمْ . »[2] .

بل إنا لنرى بعض الذين حسن إسلامهم من الصحابة الكرام ، يخضعون من حيث لايشعرون ، لعقابيل جاهلية في نظرتهم إلى البنت:

هذا عمرو بن العاص دخل على معاوية وبين يديه بنته عائشة فقال: « من هذه ؟ » فقال : « هذه تفاحة القلب » فقال له : « انبذها عنك فوالله إنهن ليلدن الأعداء ، ويقربن البعداء ، ويورثن الضغائن . » قال معاوية « لاتقل ذلك ياعمرو ، فوالله مامرّض المرضى ولا ندب الموتى ولا أعان على الأحزان مثلهن ، ورب ابن أخت قد نفع خاله . »[3] وكلام عمرو هذا بعد الهجرة بأربعين عاماً ، دليل واضح على أن النظرة الجاهلية لم تستأصل تماماً من نفوس بعض الذين رُبوا على آدابها ، على

---

(١) سورة التوبة الآيتان ٩٨ ، ٩٩

(٢) سورة الحجرات الاية ١٤

(٣) العقد الفريد (طبعة ١٩٢٨) ١ : ٣٦٤

رغم نصف قرن قضوه في الاسلام ، بل ما يزال من أحكام بيئتها آثار تظهر فيهم من حيث لايشعرون .

وانظر تأصل هذه العادة القبيحة عند بعض من أسلم من الجاهليين في قصة غيلان بن سلمة الثقفي : فقد ذكروا أنه أسلم وله عشر نسوة ، فطلب إليه الرسول ﷺ أن يختار أربعاً منهن ، وبقي على ذلك ، حتى إذا شاخ أيام عمر بن الخطاب ، طلق نساءه وفرق ماله في بنيه ، فأخبر عمر ، فأرسل إليه « وايم الله ! لتراجعن نساءك ، ولترجعن في مالك ، أو لأورثهن منك ولآمرن بقبرك فيرجم كما يرجم قبر أبي رغال . »[1] فأشفقت جاهلية غيلان من عزيمة عمر .

وأصل النظرة في حرمانهم البنت حقها من الارث : أن المال يذهب إلى الغرباء الذين تزوجت إليهم وكثيراً مايكونون من أعدائهم ، وهم حراص على بقائه في أسرهم ثم هم لا تطيب نفوسهم أن يؤول مالهم إلى من لاتنتفع القبيلة بهم في القتال ، ومن قولهم المعروف في ذلك : « لا يرثنا إلا من يحمل السيف ، ويحمي البيضة . » أضف إلى هذا اغتصابهم مهرها أيضاً . وهو ظلم يزيده قبحاً أنه منصب على مخلوق ضعيف ، يصبه عليه أحق الناس برحمته وهم أبواه وأهله :

---

(١) الاصابة : ترجمة غيلان بن سلمة ٣ : ١٩١ — وأبو رغال — على مايقول الجوهري — كان دليلا للحبشة حين توجهوا إلى غزو مكة فمات في الطريق فرجمت العرب قبره على خيانته .

وظلم ذوي القربى أشد مضاضةً على المرء من وقع الحسام المهند[1]

غصب المرأة إرثها ومهرها ، هو العادة الأثرية الباقية في كثير من أهل البادية حتى اليوم[2] .

وهناك نوع آخر من هذا الظلم ، يقع على اليتيمة تكون عند الرجل « هو وليها ووارثها ، قد أشركته في مالها حتى في العذق ، فيرغب عن

---

(١) طرفة بن العبد .

(٢) لست أعرف اليوم بين القبائل الضاربة في بوادي الشام وسهولها ومشارفها من يتنزه عن هذا الظلم ، بل إني رأيت في بعض قرى (قلمون) في الشام من درجوا على حرمان الاناث حقوقهن في الميراث والمهر . وكانت هذه القرية وهي (عسال الورد) على اختلاط وعلائق مع (العربان) فمن ها هنا تسربت هذه السنة السيئة فيهم وأصبحت عرفاً من عرفهم . وإن أعجب لشيء فلبعض الاسر الكبيرة الثرية في زماننا ، الذين يحتالون شتى الاحتيالات ليحرموا الانثى حقها من الارث فعل أهل الجاهلية شبراً بشبر ، يوزع رب الاسرة ثروته في الذكور دون الاناث قبيل وفاته . وتزيد الجراءة في بعض فينص على هذا الحرمان في وصيته كأن الاسلام لم يكن ، وكأن الله لم يبعث رسولا ولم ينزل وحياً . وإذا كانت الاسرة أسرة صلاح ، جرت على ظلم آخر فمنعت بناتها الزواج طول عمرهن خشية توزع الثروة وتسرب الميراث إلى الأسر الغريبة . حتى إني لأعرف أسرة كبيرة بدمشق واسعة المزارع والضياع فيها نحو خمسين عانساً بين شابة وكهلة وشيخة .

هذا شيء نعرفه في الشام ، ولعل في مصر وبقية الأقطار قريباً منه ، والأمر بعد إلى الله (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) .

أن ينكحها ويكره أن يزوجها رجلا فيشركه في مالها ، فيعضلها »[1]

وقد وقع على عهد الرسول ﷺ نحو من هذا فكان « لجابر بنت عم دميمة ولها مال ورثته عن أبيها ، وكان جابر يرغب عن نكاحها ، ولا يزوجها من غيره خشية أن يذهب الزوج بمالها »[1] فنزل الوحي حاسماً بالنهي عن هذا العدوان وذلك قوله تعالى :

« وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلْ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ[1] . » .

ثم هم لا يسوون بين الرجل والمرأة في الدماء ، فلا يقتلون رجلا بامرأة كائنة من كانت ، إلا أنه ينبغي أن نقرر هنا أن من النادر أن يقتل رجل امرأة إلا إذا عرف عليها فاحشة وكانت تخصه ، فحينئذ يغسل عاره بدمها ولا شيء عليه .

الحكم الثالث

هذا ولعلنا لا نكون إلى الغلو ، إذا اعتقدنا أن أمر المرأة في الجملة غير حميد في المجتمع الجاهلي الذي تشاءم بالمرأة كل التشاؤم ، حتى درج فيه هذا القول : « الطيرة في ثلاث : في المرأة والدابة

---

(١) انظر أسباب نزول الآية (١٢٦) من سورة النساء في كتاب (لباب النقول في أسباب النزول) للسيوطي .

والدار»[1] ولا يرد علينا مادرجت عليه بعض الأسر النبيلة من احترام للمرأة ولحقوقها ، فذلك شيء قليل لا يصلح إطلاقه على مجموع عرب الجاهلية، فقد كانوا حقيقة الى الجهل والخشونة والبداوة[2] ، وتلك أمور تنتج في كل إقليم ماأنتجت في جزيرة العرب ، فامتياز بعض أشراف الحواضر كمكة والمدينة شذوذ لا يقاس عليه .

ولا يستطيع أحد أن يزعم — بعد هذا — أن الحال التي وجدت فيها المرأة العربية من وأدٍ وسبي وحرمان ميراث وعضل وغصب مهر وامتهان . . . هي حال حسنة ، والحكم دائماً على المجموع لا على الجميع.

---

(١) انظر ص ١٢٧ (الاجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة) للزركشي (المطبعة الهاشمية بدمشق ١٩٣٩)

(٢) وكثيراً ما كانت قسوتهم تعدو الاناث الى الذكور فقد روى عروة أن عائشة قالت : « جاء إلى النبي ﷺ رجل من أهل البادية فقال : يارسول الله أتقبّلون الصبيان ؟ » قال : (نعم) قال « فوالله مانقبلهم » قال : « أو أملك إن كان الله نزع من قلبك الرحمة » — فتح الباري ١٠ : ٣٦٠ (المطبعة الأميرية) وصحيح مسلم ٢ : ٢١٣ (المطبعة الاميرية) .

الفصل الثّالث

صنيع الاسلام للمرأة

... ثم جاء الإسلام : فغيَّر كل شيء ، وأول مابدأ به مظالم المرأة فقضى عليها قضاء مبرماً وعني أشد العناية باشعار الرجل أن المرأة مخلوق مثله في الانسانية ، ومكّن لهذا الشعور التمكين كله، فتجد في التنزيل العزيز أمثال هذه الآيات .

« هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكُن إليها »[١] ،

« يا أيها الناسُ اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً »[٢] ،

« والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفَدة »[٣] ،

---

(١) سورة الأعراف ٧ الآية ١٨٨ .

(٢) سورة النساء ٤ الآية ١ .

(٣) سورة النحل ١٦ الآية ٧٢ .

« فاطر السموات والارض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً»[١] ..الخ

ولأمرٍ ما كرر الوحي الاشارة إلى أن الرجل والمرأة خلقا من نفس واحدة ، فهو يريد استئصال امتهان راسخ في نفوس بعضهم[٢] للنساء ، ثم عرف الاسلام لها حقوقها كاملة ، وأراحها من عنت الجاهلية وإرهاقها بعد أن عانت منهما ما عانت ، ثم بوّأها المقام المحترم في بيتها وفي المجتمع ، وأوصى بها ، وإليك بعض التفصيل :

إبطال المظالم جملة

كان وأدٌ ، فجاء الاسلام بتحريمه فلم تكن موؤدة منذ انتشار الاسلام حتى يومنا هذا ،

وكان سبي ، فحرم الاسلام السبي منذ حرم الغزو .

---

(١) سورة الشورى ٤٢ الآية ١١ .

(٢) لقد غالى بعض الباحثين في (تعميم) الحكم على العرب دون حجة مقبولة أو استقراء صحيح ، فزعم الكاتب الروسي أحمد أغا ييف في كتابه (حقوق المرأة في الاسلام — ترجمة سليم قبعين) أن العرب كانوا يبيعون نساءهم بيع الرقيق أو يستبدلون بهن بعض الحيوانات الاهلية !!؟؟) ص ٢٩ — ولم يذكر أغاييف المصدر الذي اعتمد عليه ، ولا الحوادث التي استنبط منها حكمه الجريء ولنفرض جدلا أن مثل هذا الحادث وقع مرة أو مرتين في بعض البوادي في عام قحط أو شدة ، فليس يبنى حكم على حادث أو حادثين . على أني — على كثرة تنقيبي — لم أعثر على أدنى خبر يشير الى استبدال عربي حيواناً بامرأة . ولست أشك أن هذا الحكم من جملة أحكام كثيرة يصدرها بعض الباحثين المستشرقين (في شطحاتهم وشلفاتهم) دون استناد إلى شي .

وكان امتهان لإنسانيتها ، فسوّى الاسلام بين دم الرجل ودم المرأة وصار يقتل قاتلها ، كما سوى بينهما في حد القذف .

وكان استئثار دونهن بالمهور ، فجعلها الاسلام حقاً لهن خالصاً لا ينزعه إلا ظالم .

وكان تعدد الزوجات غير محدود ولا مقيداً ، فجاء الاسلام محدداً له ، مقيداً إياه بقيود كفيلة بالقضاء عليه ، كما فعل بالرق .

وكان إكراه للفتيات على البغاء ليكسبن لأسيادهن مالاً ، فجاء الاسلام معلناً : « وَلا تُكرِهوا فَتَياتكُمْ على البِغاء »(١)

وكان قتل للأولاد من الفقر أو من خشيته ، فجاء الاسلام حامياً لهم مطمئناً آباءهم على أرزاقهم وأرزاق أولادهم مخاطباً الفقراء منهم بهذا القول الكريم :

« وَلا تَقتُلوا أوْلادَكُمْ مِنْ إملاقٍ نَحنُ نرزُقُكُمْ وَإياهمْ(٢) »

وغيرَ الفقراء بقوله :

وَلا تَقتُلوا أوْلادَكُمْ خَشيةَ إملاقٍ نَحنُ نرزُقُهُم وَإياكُمْ إنَّ قَتلَهُمْ كانَ خِطئاً كبيراً(٣) » .

---

(١) سورة النور ، الآية ٣٣

(٢) سورة الأنعام الآية ١٥١

(٣) سورة الاسراء الآية ٣١

وكان حرمان ميراث ، فقرر لهن الاسلام حقوقهن فيه: «للذَّكَرِ مثلُ حظ الأُنْثَيَيْنِ »[١] وجعل هذه الحقوق فريضة من الله نافذة.

وكان عضل (منع) لهن عن الزواج طمعاً في أن يفتدين أنفسهن بمال ، أو يمتن فيرثوهن ، فجاء الاسلام ناهياً عنه زاجراً :

« ياأيُّهاالَّذينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أنْ تَرِثُوا النِّساءَ كَرْهاً وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ ما آتَيْتُمُوهُنَّ[٢] .»

وكان إساءة عشرة لهن ، فنزل الوحي بهذه الكلمة الطيبة الجامعة :

« وَعاشِرُوهنَّ بالمعروف . »[٣]

وكان الولد يرث زوجات أبيه في جملة المتاع ، فجاء الاسلام رادعاً أشد الردع عن هذا المنكر بقوله :

« وَلا تَنْكِحُوا ما نَكَحَ آباؤُكُمْ مِنَ النِّساءِ إلاَّ ما قَدْ سَلَفَ إنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَمَقْتاً وَساءَ سَبِيلاً[٣] ».

وكان ... وكان ... مما أبطله الاسلام جملة واحدة .

ثم سن لها تشريعاً مفصلاً في الإرث والزواج والطلاق مبيناً مالها

(١) سورة النساء ، الآية ١٠

(٢) سورة النساء ، الآية ١٨

(٣) سورة النساء ، الآية ٢١

وما عليها ضمن هذا الأساس (الحقوقي) العادل « ولَهُنَّ مثلُ الذي عليهنَّ بالمعرُوف (١) »:

جعل المهر حقاً خالصاً للمرأة ونهى عن مسه بأي سبيل كان :

« وآتُوا النّساءَ صَدُقاتِهِنَّ نِحْلَةً (٢) ».

«وإنْ أَرَدْتُمُ استِبْدالَ زَوْجٍ مكانَ زوجٍ وآتَيْتُمْ إحْداهُنَّ قِنطاراً فَلا تأخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً، أتأخُذُونَهُ بُهْتاناً وإثْماً مُبِيناً. وكَيْفَ تَأخُذُونَهُ وقَدْ أفْضى بَعْضُكُمْ إلى بَعْضٍ وأخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثاقاً غَليظاً (٣) ».

وجعل إحسان العشرة الزوجية من أهم ما يجب على الرجل التزامه،

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٢٨

(٢) سورة النساء الآية ٣

(٣) سورة النساء الآيتان ١٩ و ٢٠ ذكر ابن الجوزي في كتابه في سيرة عمر ابن الخطاب : أن عمر نهى الناس عن زيادة المهور وخطب فيهم قائلاً :

« لاتزيدوا في مهور النساء على أربعين أوقية نحو (اربعمائة درهم) ... فمن زاد ألقيت الزيادة في بيت المال » . ثم نزل فقامت امرأة من صف النساء طويلة في أنفها فطس فقالت : « ماذلك لك » قال : « ولم ؟ » قالت : « لأن الله تعالى قال : « ... وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتانا وإثما مبيناً ؟ » فقال عمر : « امرأة أصابت ورجل أخطأ » ، « كل الناس أفقه من عمر » ثم رجع فركب المنبر فقال : « يأيها الناس ، كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء في صدقاتهن (مهورهن) على أربعمائة درهم ، فمن شاء أن يعطي من ماله ما أحب وطابت به نفسه فليفعل »

وكرّه الشارع الطلاق إلى الناس وبغّضه وشدد فيه ، ورتب على الرجل إن أوقعه واجبات غير سهلة ، بل إنه توقع للرجل خيراً كثيراً إن هو أبقى على العلاقة الزوجية ، حتى حين تشتد الكراهية بين الزوجين قال الله تعالى :

« وَعاشِروهُنَّ بالمَعْروفِ فإنْ كَرِهتُموهُنَّ فَعَسى أنْ تَكْرَهوا شَيْئاً ويَجْعَلَ اللهُ فيهِ خَيْراً كَثيراً [١] »

وأجّل أجلاً للمطلقات : مدة طويلة يبقين فيها في بيوتهن ، ليرجع الرجل إلى نفسه فيتلافى ما فرط منها ، وهذا غاية الاحتياط في توثيق هذا العقد بين الزوجين ... حتى إذا أعيت كل حيلة ، وتنغص عيش الزوجين ، ولم يكن ثمة من الفراق بد ، كان الواجبَ على الزوج إذا اعتزم الطلاق : « تسريحٌ بإحسانٍ . [٢] »

المعروف والاحسان أساس كل علاقة بين الزوجين

وهكذا نجد (المعروف) و (الاحسان) هما أساس كل علاقة زوجية ، وهما الأساس أيضاً بعد انفصام تلك العلائق .

وقرر في مواريث النساء هذه القاعدة : « لِلرِّجالِ نَصيبٌ مِمَّا تَرَكَ الوالِدانِ والأقرَبونَ ولِلنِّساءِ نَصيبٌ مِمّا تَرَكَ الوالِدانِ

---

(١) سورة النساء الآية ١٨

(٢) سورة البقرة الآية ٢٢٩

والأقْرَبُونَ مِمّا قَلَّ مِنْهُ أوْ كَثُرَ نَصيباً مَفْروضاً[١]».

وبيَّن للمرأة حقوقها من الارث : زوجاً وأماًوبنتاًوأختاً،فصارت كالرجل ذات حقوق أصلية منصوص عليها بالتفصيل .

ولولا أن الكلمة لاتتسع لشرح أكثر لأتينا على جميع ما فُرض لهن من حقوق حتى صرن في المجتمع الاسلامي بمكانـة (حقوقية) تحسدها عليها متمدنة القرن العشرين . فلا أقل إذاً من أن نحيل القارىء العجول على مصدر واحد هو القرآن الكريم ، فليمعن في تدبر هؤلاء الآيات الكثيرة الخاصة بالنساء : توصيةً بهن وتشريعاً لهن ، ليقرأ في [سورة البقرة : الآيات (٢٢١ ـ ٢٤٢) ، وفي سورة النساء : الآيات (١٠ ـ ٢٥ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ١٢٦ ـ ١٣٠ ، ١٧٥) ، وفي سورة النور: الآيات (٢ ـ ١١ ، ٢٣ ، ٣١ ـ ٣٤ ، ٦٠) وفي سورة الطلاق:الآيات (١ ـ ٨)] ففيهن جميعاً تفاصيل وافيـة عن حقوق النساء في الزواج والطلاق والميراث ، وفيهن تشريـع كامل لجميع علائقهن وأحكامهن في الحدود والعبادات والمعاملات[٢].

---

(١) سورة النساء الآية ٦

(٢) يجد الباحث الصابر في مطولات كتب الفقـه ، رعاية ورفقاً كبيرين ، ومن طلب أحكام النساء في أبوابها الفقهية وأمعن في تفاصيلها وخاصـة حقوقها على الوالد والزوج والولد .. أيقن بقوة مركزها الاجتماعي والحقوقي .

هذا مامنح الاسلام المرأة من حقوق ، فهل قامت هي بواجب الشكر عليها ؟

نعم :

نصيب المرأة في نصر الاسلام

فتحت المرأة العربية عينها — لما أظلتها راية الاسلام — على رجال غير الرجال ، ومجتمع غير المجتمع ، ودين غير الدين ، فكأنها نشطت من عقال ، فشمرت عن ساعدها ، وأخذت من هذا الدين الجديد نصيبها الأوفى ، وكان شكرها لله عليه شكراً عملياً .

قاست في أوله ماقاسى الرجال من عذاب وهجرة واضطهاد وأذى ، ثم انتظمت في صفوف المقاتلين إعلاء لكلمة الحق ، وذوداً عن دين الله وعن رسوله ، فقاسمت الرجل شرف الجهاد وآبت بثوابه وكرامته ، وليس بعد بذل الروح غاية في الشكران .

كان للنساء بيعة في القرآن كما للرجال بيعة : ذكر الله رضاه عن الذين بايعوا تحت الشجرة بيعة الرضوان يوم الحديبية فقال : « إنَّ الذينَ يبايعونكَ إنما يبايعون الله يدُ الله فوقَ أيديهمْ »[1] « لقدْ رضيَ اللهُ عنِ المؤمنينَ إذْ يبايعونكَ تحتَ الشجرةِ فعلم ما في قلوبِهمْ فأنزلَ السكينةَ عليهمْ وأثابهمْ فتحاً قريباً »[1] ذكر بيعة الرجال هذه كما ذكر بيعة النساء في قوله :

(١) سورة الفتح . الآيتان ١٠ ، ١٨

« يا أيها النبيُّ إذا جاءكَ المؤمناتُ يبايعْنك على أنْ لايشركْنَ بالله شيئاً ولا يسرقْنَ ولا يزْنينَ ولايقتُلْنَ أولادَهنَّ ولا يأتينَ ببُهتانٍ يفترينهُ بينَ أيديهنَّ وأرجلهن ولا يعصينكَ في معروفٍ فبايِعْهنَّ واستغفرْ لهنَّ اللهَ إن اللهَ غفورٌ رحيمٌ . »[1]

وكان لهن هجرة كما للرجال هجرة ، وجهاد كما لهم جهاد .[2]

ويكاد الوحي لايذكر الرجال في مكرمة أو تشريع أو ترغيب أو ثناء ، الا ذكر النساء معهم . وما أكثر ما تجد في التنزيل العزيز أمثال قوله تعالى :

« إنَّ المسلمينَ والمسلماتِ والمؤمنينَ والمؤمناتِ والقانتينَ والقانتاتِ والصادقينَ والصادقاتِ والصابرينَ والصابراتِ والخاشعين والخاشعاتِ والمتصدقينَ والمتصدقاتِ والصائمينَ والصائماتِ والحافظينَ

---

(١) بسورة الممتحنة ، الآية ١٢ = وقد ذكروا أن رسول الله كان يقول لهن بعد ذلك : « فيما استطعتن وأطقتن . » فيقلن : « الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا »

(٢) كتب نجدة بن عامر الحروري إلى ابن عباس يسأله : « هل كان رسول الله يغزو بالنساء ؟ » فكان من جواب ابن عباس : « ... وقد يغزو بهن فيداوين الجرحى ويُحذَيْن (يعطين) من الغنيمة .. » انظر تيسير الوصول ١: ٢٣٥ عن مسلم وأبي داوود والترمذي

فروجَهمْ والحافظاتِ والذاكرينَ الله كثيراً والذاكراتِ أعدَّ الله لهمْ مغفرةً وأجراً عظيماً »[١].

لقد رفع القرآن منزلة المرأة الأدبية واستنقذها من الحضيض وبوّأها الأوج ، فبقيت في سماء المجتمع الاسلامي شيئاً مقدساً تتطاول إليه الأنظار بالحرمة والرعاية ، حتى كان يخدمهن في بيوتهن الخلفاء أنفسهم[٢] ، وحتى ذكروا ان عمر بن الخطاب خرج يوماً ومعه الناس ، فمر بعجوز فاستوقفته فوقف ، فجعل يحدثها وتحدثه ، فقال له رجل : « يا أمير المؤمنين حبست الناس على هذه العجوز ؟ » فقال : «ويلك أتدري من هي ؟ هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سماوات ، هذه خولة بنت مالك بن ثعلبة التي أنزل الله فيها : « قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها . الآية[٣] »

وخبر خولة هذه ممتع طريف ، أتت تشكو زوجها أوس بن الصامت إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وإليك حديث عائشة عنها ، قالت عائشة :

---

(١) سورة الأحزاب ٣٣ الآية ٣٥

(٢) تسابقُ الشيخين أبي بكر وعمر إلى بر امرأة في جوف الليل أمر مشهور في التاريخ.

(٣) الإصابة : ٨ : ٦٩

استجابة الله شكوى امرأة

« تبارك الذي وسع سمعه كل شيء ، إني لأسمع كلام خولة ويخفى عليّ بعضه ، وهي تشتكي زوجها الى رسول الله وتقول : « يارسول الله أكل شبابي ، ونثرت له بطني . . حتى إذا كبرت سني ، وانقطع ولدي ، ظاهر مني . اللهم إني أشكو إليك » فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآيات :

« قدْ سَمِعَ اللهُ قولَ التي تجادلُكَ في زوجها وتشتكي إلى اللهِ واللهُ يسمعُ تحاوُرَكما إنَّ اللهَ سميعٌ بصيرٌ . والذين يظاهرونَ منكم منْ نسائِهمْ ماهنَّ أمهاتِهمْ ، إنْ أمهاتُهمْ إلا اللائي ولدْنَهمْ وإنهمْ ليقولونَ مُنكراً منَ القولِ وزُوراً وإنَّ اللهَ لعفُوٌّ غفورٌ »[1] الخ الآيات . اه

في هذا الجو من الاحترام والتقديس تمتعت المرأة بنعمة الإسلام

---

(١) أول سورة المجادلة . والظهار أن يقول الرجل لامرأته : « أنت عليّ كظهر أمي » فتحرم عليه — انظر (لباب النقول في أسباب النزول) للسيوطي

الفصل الرابع

شخصيتها الحقوقية

إجمال حقوقها بنتاً وزوجاً وأماً

استطعنا حتى الآن أن ندرك المنزلة الاجتماعية السامية : التي رفع الإسلام إليها المرأةبعد طول إهمال وامتهان . وبقيت البلدان الإسلامية هي الأماكن الفريدة التي للمرأة فيها استقلال شخصي يحترمه القانون . وبقيت أوروبا حتى العصور القريبة تنظر إلى المرأة نظرة امتهان ورثتها عن العصور المظلمة ، فلما تمكنت حضارتها منحت المرأة حظاً غير قليل من الاحترام وإن تكن شابته أيضاً بنصيب غير قليل من الابتذال .

فأما الأمر الخطير الذي لايزال القانون الاسلامي سابقاً فيه كل القوانين الحديثة ، فهو مايتعلق بشخصية المرأة (الحقوقية). لقد منحها الله منذ أربعة عشر قرناً، حق التصرف المستقل بكل ماتملك كما منح الرجل، لا يزيد أحدهما على الآخر شيئاً. وهذا هو الشيء الذي لاتزال قوانين

الحضارة الغربية قاصرة دون بلوغه حتى اليوم.فلنتتبع التدرج الفطري للأنثى في إجمالنا ماسبق لها من حقوق :

على والديها القيام بحسن تربيتها حتى تلحق بالنساء ، فاذا مات أحدهما كان لها من تركته حصة مقررة تستولي عليها . وعلى أبيها أو أخيها النفقة عليها حتى تتزوج ، فاذا أدركت كان لها ملء الحرية في اختيار زوجها ، وليس لأي مخلوق : والداً كان أو حاكماً أن يحدّ شيئاً من هذه الحرية التي وهبها لها الله كاملة غير منقوصة ،(١) فاذا أصبحت زوجاً للرجل ، كان لكل منهما على الآخر حقوق وله مثلها : « ولهنّ مثلُ الذي عليهنّ بالمعروف . » وعليه النفقة عليها من ماله دون أن تكلف (على سبيل الوجوب) طبخاً ولا غسلاً ولا إرضاعاً ، فاذا صارت أماً فقد تم لها أسمى ماتطمح إليه من الاحترام والتبجيل، وعلى الولد أن يبذل كل وسع في مرضاتها وإطاعتها وراحتها .

وفي جميع هذه الأدوار تبقى مستقلة بما تملك لايشاركها حق

---

(١) جاءت فتاة إلى رسول الله ﷺ فقالت : « إن أبي زوجني من ابن أخيه ليرفع بي خسيسته » فجعل ﷺ الأمر إليها ، فقالت : « قد أجزت ما صنع أبي ، ولكن أردت أن أُعلم النساء أنه ليس إلى الآباء شيء » . اه أرادت هذه الفتاة أن تعلم النساء والرجال معاً أن الشريعة لم تجعل للوالد حقاً ما في أن يكره ابنته على الزواج بمن لاترضى .

التصرف فيه مشارك. لازوج ولا أخ ولا والد . ولها نصيب مفروض — على حسب عدد الورثة ودرجة قراباتهم — من ميراث الأب والأخ والزوج والولد[1] ، كما أن مهرها حق خالص لها تتصرف فيه تصرفها بميراثها وملكها .

ولايتها على أموالها وعقودها المدنية :

مضى على المرأة المسلمة (١٣٦٤) عاماً وهي لاتختلف عن الرجل في شيء ، فيما يتعلق بممارسة الحقوق المالية وإليك في ذلك هـذا النص الشرعي من كتاب فقه حديث :

« سوّى الشارع بين الذكر والأنثى في الولاية على المال والعقود، فتى بلغت المرأة سن النكاح وهي رشيدة ، كان لها أن تتصرف بمالها مستقلة بجميع التصرفات القولية والفعلية ، وأن تعقد عامة العقود المدنية من بيع وشراء وإجارة وشركة ومساقاة ومزارعة وقراض ورهن وعارية ووديعة وهبة ووصية ووصاية وغيرها ، وأن توكل فيها من شاءت أو تتوكل بها ، وليس لأبيها أو زوجها ولا لغيرهما أن يتدخل في ذلك لقوله تعالى :

(١) لاتخول الأنظمة المسيحية للأم حقاً شرعياً ما على ولدها ، فقد يكون من ذوي الملايين فيساعدها — إن شاء — تبرعا ، فإذا مات فلا حق لها في تركته البتة — السيد أمير علي ص ١٤ مركز المرأة في الاسلام .

« وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاحَ فانْ آنستم منهم رُشْداً فادفعوا إليهم أموالَهم »[١] وهذا ماذهب إليه جمهور الأئمة والعلماء[٢] ولها إضافة على ماتقدم كله حق التقاضي مع خصومها على قدم المساواة بالرجل .

نكسة رجعية حديثة

هذا وإنْ أعجبْ لشيء فلتلك النكسة الرجعية التي يبتلي بها التقليد الأعمى عبيده : لقد تمتعت المرأة العربية بحريتها الكاملة في التصرف بأموالها ، في كل الأقطار والأعصار ، إلا أن بعض المتشرعين في احد البلدان العربية اليوم ، قعدت هممهم دون ان يبنوا التشريع المكلفين بوضعه ، على أسس مستمدة من عادات الوطن وروحه وتعاليمه وتاريخه، واندفعوا بكل حماسة إلى نسخ قانون أجنبي بحذافيره ، قانونٍ وضع في بلدغير بلدنا،ولأمة غير أمتنا،ولاعتبارات محلية وتاريخية ودينية لا وجود لها عندنا البتة ، كأن التشريع لايكلف القائم به أكثر من (شحنة تجارية بالبريد) ،فكان من هذا التجاهل للأصول التي ينبغي ان يستمدمنها كل تشريع ،أن حرمت المراة العربية في هذا القطر من (الأهلية التجارية) إذا لم يأذن زوجها . واذا

---

(١) سورة النساء الآية ٥

(٢) حقوق المرأة المسلمة للشيخ نديم الملاح ص ١١٨

سألت عن السبب في هذه الرجعية الذميمة لم تجد جواباً غير أن القوانين الفرنسية (الحديثة !!) التي طُلبت بالبريد هكذا جاءت !! [١]

---

(١) حضرت المؤتمر الأول للمحامين العرب بدمشق الذي عقد في صيف السنة الماضية (١٩٤٤ م) وكانت هذه القضية من أشد ماأثار السخط والاستنكار والرثاء في نفوس الأساتذة المستمعين . وإليك نصها كما جاء في محـاضرة الاستاذ محمد صالح بك عميد كلية التجارة في الجامعة المصرية ، منقولا عن مجلة نقابة المحامين بدمشق ص ٣٣٩ - ٣٤٠ :

سنة ١٣٦٣ هـ = ١٩٤٤ م

... يجب ألا نقع في الأخطـاء التي وقع فيها أسلافنا فننقل قانوناً أجنبيا برمته دون أن نتدبر أحـكامه ونتفهم مراميه .. [ثم ذكر شاهداً : نصاً قانونياً فرنسيا وضع لأسباب تاريخية محلية فنقل الى القانون المصري نقلاً حرفيا ولم يكن شيء من الاسباب المذكورة قائما في مصر] ص ٣٤٠ .. كذلك مانص عليه قانون التجارة اللبناني في المادة ١١ من « أن المرأة المتزوجة مهما تكن أحكام القانون الشخصي الذي تخضع له لا تملك الاهلية التجـارية الا اذا حصلت على رضى زوجها الصريح أو الضمني . »

والمفهوم من هذا النص أن المشرع تعمد الإخلال بالقاعدة المقررة في الشريعة الإسلامية وهي تساوي المرأة والرجل في الحقوق المدنية والتجارية . فالمرأة المسلمة لهـا ذمة مستقلة عن ذمة زوجها ، ولها أن تتصرف في أموالها بلا حاجـة الى الحصول على إذنه .

فهل تدبر المشرع اللبناني ما في هـذا الحظر من تناقض ، إذ يترتب عليه أن المرأة المسلمة يمتنع عليها التصرف في أموالها المنقولة بدون إذن الزوج . وعندي أن تساوي المرأة مع الرجل في الحقوق هو قاعدة من قواعد النظام العام في الاقطـار العربية ولا يملك المشرع العادي الإخلال بها . اهـ

وهي لا تزال تحرم المرأة ممارسة حقوقها المالية حتى الآ ن !! [١]

ولا أظن إلا أن رجال القانون في هذا القطر سيغضبون للمرأة أولاً ولسمعة بلدهم القضائية ثانياً فيزيلوا هذا الخطأ المعيب من قوانينهم .

★ ★ ★

ولايتها القضاء

لم يكتف (الشارعون) في البلاد الإسلامية بهذا السمو في تقديس (حقوقية) المرأة ، بل بالغوا فطلبوا لها حتى مالا تؤهلها فطرتها له في الغالب ، لقد شرعوا لها أن تكون قاضية : فأجاز أبو حنيفة قضاءها في الأموال ، ثم جاء الإمام الطبري فأجاز قضاءها وحكمها في كل شيء : الأموال وغيرها [٢] . وهو شيء لا سبيل إلى أن تحلم به المرأة الأوروبية والأميركية حتى اليوم . أما اللائي مارسن شيئاً أكبر من القضاء فهن قليلات ، وإن التاريخ ليذكر أسماء سيدات محترمات أدرن ملكاً وهن وصيات على أولادهن فكن أمثلة تحتذى في حسن التدبير وكمال العقل وسعة الحيلة وبعد النظر .

---

(١) نشرت مجلة (المختار من ريدرزدايجست ـ الطبعة العربية) في ص ١٠٣ من عدد سبتمبر سنة ١٩٥٧ أنه بعد الحرب العالمية الثانية « أصدرت جمهورية بون دستوراً منحت فيه المرأة المتزوجة لأول مرة الحق القانوني في اقتناء الممتلكات » !!

(٢) ذكر السيد أمير علي في محاضرته . أن هذا الحكم قد عمل به ، أي نصبت بعض النساء قاضيات فقضين بين الناس في القرن الثامن المسيحي ـ (مركز المرأة في الاسلام ـ مطبعة زخور) ولم أدر مصدر السيد الذي اعتمد عليه في ذلك ، ولا في أي بلد كان هذا ؟ ولست أستبعده .

الفصل الخامس

جهاد الرسول في سبيل المرأة

« ومن آياته أنْ خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودةً ورحمة، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون »[١]

تلطف الرسول في القضاء على النظرة الجاهلية

أراد صاحب الشريعة الإسلامية ﷺ أن يتعهد بنفسه ما تبقّى من آثار الجاهلية ونظرها إلى المرأة فيقضي عليه. والتشريع تكفل بكل مايتعلق بمعاملتها، وكاد لا يبقي على شيء من الفكرة الجاهلية نحو المرأة. ولكن كيف السبيل إلى استئصال ما لا تشعر به النفوس، وما لاسبيل إلى اجتثاثه بتشريع: كميْل الوالدين إلى الذكر أكثر من الأنثى: هذا الشيء الذي قدمنا أنه مركوز في غرائز الناس كافة؟

ذلك ما عالجه أحكم من تجرد لطب النفوس، وأبصر خلق الله في دائها ودوائها. فقد رأى الناس من عمل الرسول نفسه وسمعوا من

(١) سورة الروم ٣٠ الآية ٢١

كلامه في هذا الموضوع ما بعث نفوسهم إلى التنزه عن البقايا الجاهلية الضئيلة ، فتسابقت وتحمست لإعزاز الأنثى وإكرامها حتى تأصل في النفوس برها والحدْب عليها ، وقرّ فيها احترامها وتفضيلها، وإليك ماتلمسه من آثار هذا الانقلاب الثائر الحكيم :

معاملته أزواجه واحتجاج النساء بها

كان الناس يترسمون في معاملة أزواجهم مايفعله النبي ، وكان ﷺ معهن ليّن الجانب حلو العشرة سهل المقادة كن يراجعنه [1] في كثير من أموره ، ويرددْن عليه حتى صرن قدوة يقتدي بها بقية النساء ، فاذا أنكر زوج حق زوجته في مراجعته احتجت عليه بعمل الرسول فأسكتته وما أطرف حديث عمر بن الخطاب يقص فيه ماجرى له معهن ، ويصف هزيمته وكيف انكسر لهن ، على رغم شدته وغلظته ، قال :

« والله [1] إن كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمراً حتى أنزل الله فيهن ما أنزل ، وقسم لهن ما قسم ، فبينا أنا في أمر آتمره إذ قالت لي امرأتي : « لو صنعت كذا وكذا » فقلت لها : « وما لك أنت ولما هنا ؟ وما تكلفك في أمر أريده ؟ » فقالت لي : « عجباً لك يا بن الخطاب ، ما تريد أن تُراجَع أنت وإن ابنتك (تعني السيدةَ حفصة بنت عمر أُم المؤمنين) لتراجع رسول الله حتى يظل يومه غضبان»فآخذ

(١) السمط الثمين ص ١٨٣

ردائي ثم أخرج مكاني حتى أدخل على حفصة ، فقلت لها : « يابنية إنك لتراجعين رسول الله حتى يظل يومه غضبان ؟ » فقالت حفصة: « والله إنا لنراجعه » فقلت : « تعلمين أني أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله . . . » ثم خرجت حتى أدخل على أم سلمة لقرابتي منها فكلمتها فقالت لي « عجباً لك يابن الخطاب : قد دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله وأزواجه ؟ » فأخذتني أخذاً كسرتني به عن بعض ما كنت أجد ، فخرجت من عندها . »

إجارة النبي من أجارته امرأة

ثم للمرأة — على الزمان — من المكانة ما صارت معه تجير على المسلمين فيحترمون جوارها . ذكرت ذلك عائشة فقالت : « إنْ كانت المرأة لتجير على المؤمنين فيجوز . » وقد أجارت أم هانىء بنت أبي طالب رجلين من المشركين من أحمائها كانا أسيرين ، فأجاز الرسول جوارها قائلاً : « أجرنا من أجرتِ وأمَّنا من أمَّنت ياأم هانىء » وهو حديث مشهور .[1]

وهل عليّ من جناح إذا أنا وقفتك في حادث طريف ، على تلك الحرية التي متع الله بها المرأة العربية في الاسلام فمارستها أوسع ممارسة؟ إنه حادث (غرامي) ولست أتحرّج من ذكره لك هنا فان رسول الله نفسه كان شفيعاً في هذا الحادث للمحب الولهان :

---

(١) انظر تفصيل هذا الخبر في سيرة ابن هشام عند كلامه على غزوة الفتح الأعظم ٣. ٣٤٣(الطبعة القديمة) وذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى ص ٢٢٣ .

شفاعة الرسول عند جارية

جارية ضعيفة مملوكة اسمها (بريرة) وزوجها عبد أسود اسمه مغيث كان شديد التعلق بها، اشترت عائشة الجارية فأعتقتها، فلما أعتقت كان لها الخيار بمقتضى الشرع بين أن تبقى عند زوجها أو تتركه وتعتدّ منه، فلما خيّرها الرسول، اختارت نفسها وتركت زوجها. فقامت قيامة هذا الزوج المسكين وهام في سكك المدينة يطوف وراءها ويبكي وإن دموعه لتتحادر على لحيته، يترضاها وهي تقول: « لا حاجة لي فيك» وبلغ ذلك الرسول ﷺ فرقّ له وقال لبريرة: «لو راجعتيه» فقالت: « أتأمرني ؟ » ، « أشيء واجب علي ؟ » فقال: « إنما أنا شافع » فقالت: « لا حاجة لي فيه » فجعل النبي يعجب وقال للعباس:

« ياعباس ألا تعجب من حب مغيث لبريرة وبغضها له ؟! » [1]

وهكذا اعتذرت هذه الجارية عن قبول شفاعة النبي نفسه، متمتعة بحريتها القانونية أبعد تمتع، وكان صنع الرسول هنا إقراراً عملياً لهذه الحرية.

وأثمر هذا المسعى في رفع شأن المرأة حتى آتى أكله ورأى النساء أنفسهن والرجال سواسية، حتى اعتددن بأنفسهن الاعتداد كله، وحتى قالت عائشة: « إنما النساء شقائق الرجال. » وعائشة ايها القارىء زعيمة الآخذين بناصر المرأة والمنافحين عنها بلا منازع، وإليها وحدها

(١) صحيح البخاري، ومسند أحمد ٦/٨١ والاجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة ص ٤٩ والسمط الثمين ١٨٢ .

تتطلع أبصار المستضعفات ، لما تم لها من المكانة الكبيرة في العلم والأدب والدين ، حتى تقطعت دون مقامها الاعناق ، وكانت أستاذة لمشيخة الصحابة الأجلاء في كثير من أمور العلم والدين . ولبث الخلفاء الراشدون يرعون منزلتها ويشاورونها ويسألونها المسائل ويرجعون إلى رأيها ، وهي واقفة بالمرصاد لكبارهم : تصحح لهم كلما رأت خطأ في حديث يحدثون به أو حكم يصدرونه . وقد ألف الزركشي كتاباً قائماً برأسه ، كسره على الأمور التي استدركتها على أعلام الصحابة .

مثل من مكانة المرأة العلمية

ولا بأس بإيراد استدراك واحد — على سبيل المثال — على عبد الله بن عمرو بن العاص أودعته نكتة لاذعة ، كثيراً ما كانت ترسل أمثالها في استدراكاتها عليهم :

بلغها أن ابن عمرو هذا يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقضن رؤوسهن، فقالت : « ياعجباً لابن عمرو : يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقضن رؤوسهن أفلا يأمرهن أن يحلقن رؤوسهن ؟ ! . . لقد كنت أغتسل أنا ورسول الله من إناء واحد وما أزيد أن أفرغ على رأسي ثلاث إفراغات .. » [1]

أما إذا تعلق الأمر بكرامة المرأة ولو من بعيد ، فياهول مايلقى المخطىء من عنفها، وإذاً لا يقوم لغضب السيدة شيء : دخل عليها رجلان فقالا : « إن أبا هريرة يحدث أن نبي الله كان يقول : « إنما الطيرة في

---

(١) الاجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة ص ١٢٣ .

المرأة والدابة والدار » فطارت شقة منها في السماء وشقة منها في الأرض وقالت : « والذي أنزل القرآن على ابي القاسم ماهكذا كان يقول ، إنما قال : كان أهل الجاهلية يقولون : الطيرة في المرأة والدابة والدار [1] ».

وبلغها عن أبي هريرة — وكم كان يلقى من عائشة — أنه قال : « قال رسول الله ﷺ « يقطع الصلاة المرأة والحمار والكلب . » فقالت عائشة معنفةً مصححة : « شبهتمونا بالحمير والكلاب . والله لقد رأيت رسول الله يصلي وأنا على السرير بينه وبين القبلة مضطجعة فتبدو لي الحاجة فأكره أن أجلس فأوذي رسول الله ، فأنسل من عند رجليه [2] . »

فيخضع الأصحاب لفتواها ، ويزيدونها على الزمن اجلالاً .

وإلى السيدة عائشة يرجع الفضل الأكبر — بعد رسول الله — في إعظام الناس المرأة الاعظام اللائق ، حتى ظهر كثير من اللائي طمحن إلى اقتفاء أثرها في الشجاعة الأدبية والجرأة ، وحتى قالت بعد ذلك القائلة — وسئلت عن زوجها — : « زوجي من أنا بعله . » [3]

---

(١) المصدر السابق ص ١٢٧ .

(٢) المصدر السابق ١٧٠

(٣) لهذه القائلة خبر طريف يفيدنا في موضوعنا ولا بأس في سرده : مات كثير عزة الشاعر المشهور ، فما تخلفت امرأة بالمدينة ولا رجل عن جنازته ، وغلب على الجنازة النساء يبكين ويذكرن عزة في ندبتهن له ، فقال الامام محمد الباقر : «أفرجوا لي عن جنازة كثير لأرفعها ، فجعل الناس يدفعون النساء عنها وجعل الباقر يضربهن —

أقوال كريمة في الوصية بالمرأة

ولم يألُ الرسول في بث حكمه الغالية في قلوب الأصحاب وصيةً بالنساء ، كلما آنس داعياً إلى القول . واستفاضت هـذه الأحاديث استفاضـة شافية توصي بالمرأة أماً ، وتوصي بهـا زوجاً ، وتوصي بها بنتاً ، وتوصي بها جنساً :

فأما الوصية بها أُماً فقد نزل بها الروح الأمين بهـذا البيان المؤثر المعجز : « وقَضى ربُّك ألاَّ تعبُدوا إلا إياهُ ، وبالوالدين إحساناً : إمَّا يَبلغنَّ عِندكَ الكبرَ أحدُهما أوْ كلاهما فلا تَقلْ لهما أفٍّ ولا تَنهرْهما وقـلْ لهما قوْلاً كريمـاً . واخفضْ لهما جناحَ الذُّلِ منَ الرَّحمة وقلْ ربِّ ارحمهما كما رَبياني صغيراً [(١)] » .

— بكمه ويقول : « تنحين ياصواحبات يوسف » فانتدبت له امرأة منهن فقالت : « يابن رسول الله لقد صدقت ، إنا لصواحبات يوسف وقد كنا له خيراً منكم له . » فأمر الباقر أحد مواليه أن يجيئه بها بعد الانصراف من الجنازة ففعل ، فرأى الباقر امرأة كأنها شرارة النار فقال لها : أنت القائلة : إنكن ليوسف خير منا ؟» قالت : « نعم ، تؤمنني غضبك يابن رسول الله ؟ » قال : « أنت آمنه من غضبي فأبيني » قالت : « نحن يابن رسول الله دعوناه الى اللذات من المطعم والمشرب والتمتع وأنتم معاشر الرجال ألقيتموه في الجب وبعتموه بأبخس الأثمان ، ثم حبستموه في السجن . فأينا كان عليه أحنى وبه أرأف ؟ » فقال الباقر : « لله درك ، ولن تغالب امرأة إلا غلبت » ثم قال لها : « ألك بعل ؟ » قالت : « لي من الرجال من أنا بعله ! » فقال : صدقت ، مثلك من تملك بعلها ولا يملكها » وكانت هذه المرأة زينب بنت معيقب — الأغاني ٩/٣٧ طبعة دار الكتب . وليس بين هذا الحادث وموت عائشة أكثر من نصف قرن .

(١) سورة الاسراء ، الآيتان : ٢٣ ٢٤ .

« ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين : أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير [1] » .

ومع هذا البيان الشافي لم يكن الرسول عليه الصلاة والسلام ليترك فرصة دون أن ينتهزها لشرح هذه المنزلة العالية التي بوأ الله الأم إياها :

جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يارسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ » قال « أمك » ، قال : « ثم من ؟ » قال « أمك » قال : « ثم من ؟ » قال : « أمك » قال : « ثم من ؟ » قال : أبوك [2] » .

وتكرر مثل هذه الوصاية في السنة المطهرة ، فروى البخاري في (الأدب المفرد) والامام أحمد وابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله يوصيكم بأمهاتكم ، ثم يوصيكم بأمهاتكم ، ثم يوصيكم بأمهاتكم ثم يوصيكم بالأقرب فالأقرب [3] » .

وليس على الأرض مسلم إلا وهو يستشهد على حرمة الأم بالكلمة الجامعة المشهورة : « الجنة تحت أقدام الأمهات » .

---

(١) سورة لقمان ٣١ الآية ١٤ .

(٢) رياض الصالحين ص ١٤٤ (سنة ١٣٥١ هـ) .

(٣) نداء للجنس اللطيف للشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله ص ١١٨ .

وأما الوصية بها زوجاً فانظر أن هناك منزلة للزوجة أسمى (إنسانية) من منزلة رفعها إليها الإسلام، وصحح بها النظرة المعكوسة التي كانت عند الجاهليين فاقرأ إن شئت:

«ومِنْ آياتِهِ أنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أنفسكم أزواجاً لتسكُنُوا إليها، وجعلَ بينكم مودّةً ورحمةً إنّ في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون[1]»

وهل ينسى مسلم أو عربي هذه الأقوال النبوية الرائعة :

« خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي[2] »،

« ما أكرم النساء إلا كريم ولا أهانهن إلا لئيم[2] ».

« أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم[3] »

وكان بعض الصحابة يضربون نساءهم ـ استمراراً لعادات الجاهلية ـ فشكونهم عند أزواج النبي ﷺ . وأراد النبي أن يبطل هذه العادة الجاهلية باللطف والحكمة فكان مما قال لأصحابه :

« ... ولقد أطاف بآل محمد نساء كثير يشكون أزواجهن ، ليس أولئك بخياركم » .[3]

---

(١) سورة الروم ٣٠ الآية ٢١ ، وبعد اثني عشر قرناً من نزول هذه الآية تراجع الأوربيون عن نظرتهم الى المرأة ، فاعترفوا أخيراً بأنها إنسان ، وأنها مخلوق غير لعين. ثم جاؤوا اليوم يروّجون الابتذال والخلاعة وتهديم الأسر وخراب البيوت ... باسم : حرية المرأة !!

(٢) نداء للجنس اللطيف ص ١٣٣ عن الترمذي .

(٣) رياض الصالحين ص ١٣٣ وستأتي الوصية بالبنات ثم بجنس النساء عامة بعد قليل.

رقة الرسول للإناث ورفقه بهن

ولست أطيل في ذكر ماأوصى الإسلام بالمرأة ،فما قدمت من الآيات البليغة والأحاديث ، فيه الكفاية . وإنما أريد أن أنبه إلى الافتنان الذي افتنّه الرسول عليه الصلاة والسلام في انتزاع ما بقي في نفوس العرب من كره البنات ، وكيف غرس مكانه العطف عليهن والعناية بهن . لقد كانت سيرته مع أزواجه وبناته وأولاد بناته عجباً من العجب ، رأى فيها الأصحاب ماأفاض عليهم الرحمة والحنان لهن ، فعشقوا منه هذا المثال وجروا عليه :

١ — قبّل رسول الله مرةابن بنته الحسن بن علي ، وعنده الأقرع ابن حابس أحد أشراف البادية ، فلم يعجب الأقرع مارأى ، ولعله عاب هذه الرحمة التي فاض بها قلب النبي حين قال : « إن لي عشرة من الولد ماقبلت منهم أحداً » فنظر إليه رسول الله ثم قال : « من لا يرحم لا يُرحم » ، « أو أَملك إن كان الله نزع منكم الرحمة [1] ؟ » وهكذا آذن النبي قسوة الجاهلية حرباً لاهوادة فيها إلا أن تُنتزع انتزاعاً وتحل محلها الرحمة الخالصة .

٢ — وأمره من عائشة رضي الله عنها كالشمس شهرة ، وكان أصحابه يعاينون عطفه عليها وهي بنت تسع وتأمل هـذا المشهد الحنون المؤثر الذي تقصه السيدة نفسها على الرجال فيما بعد ليقتدوا بهدي الرسول في الرفق بالإناث ، قالت :

---

(١) تيسير الوصول ٢/١١٣ وقد سبق مثل هذا الحديث ص ٢٩ .

« والله لقد رأيت رسول الله ﷺ يقوم على باب حجرتي والحبشة يلعبون بالحراب ، ورسول الله يسترني بردائه لأنظر إلى لعبهم من بين أذنه وعاتقه ، ثم يقوم من أجلي حتى أكون أنا التي أنصرف ، فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو . »[١]

٣ — حدثت أيضاً تقول : « دخلت عليّ امرأة ومعها ابنتان لها تسأل ، فلم تجد عندي شيئاً غير تمرة واحدة ، فأعطيتها إياها فقسمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها ، ثم قامت فخرجت ، فدخل النبي ﷺ علينا فأخبرته فقال :

« من ابتلي من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن كنّ له ستراً من النار . »[٢]

هذا عمله فأما أقواله التي لمست قلوب أغلظ الناس أكباداً ففجّرت منها ينابيع رحمة وحنان فهذه أمثلتها :

من جوامع كلمه في ذلك

١ — « من كان له ثلاث بنات فصبر عليهن كن له حجاباً من النار يوم القيامة »[٣]

---

(١) مسند أحمد ٦/١٦٦ والجزء الذى حققناه وأصدرناه منذ أيام من (سير النبلاء) الذهبي مخصوصا بترجمة السيدة عائشة ص ٣١ .

(٢) رياض الصالحين ص ١٢٩ عن البخاري ومسلم .

(٣) البخاري في الأدب المفرد ص ١٣ .

٢ ــ من عال ثلاث بنات أو ثلاث أخوات أو أختين أو بنتين فأدبهن وأحسن إليهن وزوجهن فله الجنة . »[١]

٣ ــ من كان له ابنة فأدبها فأحسن تأديبها وغذاها فأحسن غذاءها وأسبغ عليها من النعمة التي أسبغ الله عليه كانت له ميمنة وميسرة من النار إلى الجنة . »[٢]

٤ ــ من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين (وضم أصابعه) »[٣]

٥ ــ ساووا بين أولادكم في العطية ، فلو كنت مفضلاً أحداً لفضلت النساء »[٤]

٦ ــ « اللهم إني أحرّج حق الضعيفين : اليتيم والمرأة . »[٥]

---

(١) تيسير الوصول ١ / ٤٩ وقال : أخرجه أبو داوود والترمذي .

(٢) الخرائطي في مكارم الأخلاق ص ٧٠ ــ والحديث ضعيف من حيث السند ، إلا أن متنة يتسق هو وبقية الأحاديث الصحاح .

(٣) رياض الصالحين ص ١٢٩ عن مسلم .

(٤) الجامع الصغير نقلاً عن الطبراني والخطيب وهذا الحديث كسابقه (٣) من حيث الدرجة وهو مروي عن ابن مسعود .

(٥) رياض الصالحين ص ١٣٠ عن أبي داوود بإسناد جيد .

٧ — « من كانت له أنثى فلم يئدها ولم يهنها ولم يؤثر ولده عليها ، أدخله الله تعالى الجنة[١] » .

فانظر حسرة الرسول على ما كان يفعل بالبنات ، وما فاض به قلبه من رحمة عليهن في أوجز لفظ وأبلغه أثراً في النفوس .

آخر وصايا الرسول

ولقد كانت حياته كلها مدرسة يتعلم فيها الأصحاب حسن رعاية النساء والقيام بحقوقهن ... حتى إذا كان العام الأخير من عمره ، وكانت حجة الوداع ، واجتمع في الموسم من العرب ما لم يجتمع مثله قبل ذلك قط ، وألقى الرسول ﷺ خطبة الوداع التي أوصى فيها المسلمين وهي آخر ماعهده الناس من خطبه في الحج ... ، كان الرفق بالنساء والوصاة بهن من أول ماقرّ في أسماع قبائل العرب ، حتى إذا نزغ بهم فيما بعد ، نزغ من جاهلية فأرادوا أن يقسوا على هذا المخلوق الضعيف.. ذكروا أنه وصية رسول الله وعهده إليهم ، وقرع أسماعهم جملته البليغة التي برزت في خطبة الوداع ، وهي قوله :

« ... ألا فاستوصوا بالنساء خيراً[٢] » .

أثر تعاليمه في تخريج النساء الجليلات

هذا ما أردت الإلماع إليه من حال المرأة في الجاهلية والحال التي سمت إليها في الاسلام ، شرحته ليكون بأيدينا مصباحاً نرد به المحجة

(١) تيسير الوصول ١ / ٤٩ .

(٢) رياض الصالحين ص ١٣٢ وقال أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح — وسيرة ابن هشام ٣ / ٤١٦ (الطبعة القديمة) .

في نهضتنا الاجتماعية ، على نور وبصيرة . وأظنك بعد هذا لا تستكثر على من دانوا بهذا الدين ، وتخرجوا بتلك التعاليم، أن يكون لهم ذلك العدد الدثر من النساء الجليلات ، اللواتي فقن كثيراً من فحول الأمم في التربية والإصلاح والبطولة والعلم والأدب والدين وتخريج الرجال.

نعم ، ليس من الكثير أن يكون لنا تاريخ فخم بثبت حافل من أعلام النساء : أمثال أمهات المؤمنين والصحابيات ومن وليهن في ميادين العلم والتربية والأدب والشعر . . وحتى الجهاد والإدارة والسياسة وإن مما تعجز عنه العصبة أولو القوة ، استقصاء المربيات والأديبات والشاعرات والمحاربات والطبيبات ... اللائي طفح بهن تاريخ العرب ، ذلك شيء يستعصي على الحصر . ولو ذهب باحث يسلسل تلك الحلقات التي احتلت أولاها عائشة وأسماء وفاطمة وخولة وغزالة والخنساء ... ومن تتابع منهن من لدن عصر الرسول إلى يوم الناس هذا ، ما كفاه عمره وإن طال .

الباب الثاني

أمهات المؤمنين

« النبيُّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجُه أمهاتُهم .. »

«ياأيها النبيُّ قل لأزواجك إن كنتنَّ تُرِدْنَ الحياةَ الدنيا وزينتَها فتعالَيْنَ أمتعْكن وأسرِّحْكن سراحاً جميلا . وإن كنتن تُردْنَ اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرة فإن الله أعدَّ للمحسناتِ منكن أجراً عظيما .

يانساء النبي من يأتِ منكن بفاحشةٍ مبينة يضاعفْ لها العذابُ ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً .

ومن يقنتْ منكن لله ورسولهِ وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً .

يانساء النبي لستن كأحدٍ من النساء إن اتقيتنَّ فلا تخضعن بالقول فيطمعَ الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً

وقَرْنَ في بيوتكن ولا تبرجْنَ تبرُّج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجسَ أهلَ البيت ويطهرَكم تطهيراً .

واذكرن مايتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً . »

سورة الاحزاب : الآيات ٦ ، ٢٨ – ٣٤

هذا هو القول الكريم ، الذي تردده محاريب المسلمين منذ أربعة عشر قرناً وستظل تردده إلى قيام الساعة ، يسمعه المؤمن فيمتلئ صدره

إعظاماً وإجلالاً : لمن شاركن الرسول في ضرائه وسرائه ، وصبرن معه على شظف العيش وكَلَب الزمان ، وتحملن معه صروف الأذى وخففن عنه ما يجد من آلام في سبيل الدعوة إلى الله .

ظلت بيوتهن مهابط الوحي والرحمة والهدى مدة حياته عليه الصلاة والسلام ، فلما انتقل إلى جوار ربه ، بقيت هذه البيوت مثابةً للناس يقصدونها متعلمين مستفتين ، أو ملتجئين مستغيثين ، فكانت تهدي الحائر ، وتعلم الجاهل ، وتحمي الملتجىء ، وتنجد المستغيث ، ولبث الناس جميعاً على اختلاف طبقاتهم: الخلفاء فمن دونهم يخضعون لأزواج الرسول خضوع الأبرار لأمهاتهم .

لقد رفعهن الله الى مقام تندق دونه الرقاب وأحاطهن برعاية وتقديس أذعن لهما كل مسلم ، فكنّ بذلك طبقة متميزة لا يفضلها أحد إلا الأنبياء . وكان من رحمة الله بهذه الأمة : أن طال عمرهن بعده ، فنقلن لأمته كثيراً من سنة النبي وخاصة فيما لا يطلع عليه إلا النساء ، فمن طريقهن عرف المسلمون أحواله المنزلية ، وعنهن رووا كثيراً من السنة التي لولاهن لضاعت ، وكانت بيوتهن بمنزلة مدارس مفتحة الأبواب يتعلم فيها النساء والرجال دينهم على السواء .

الفصل الأول

في أزواجه وسبب تعددهن

لبث رسول الله طول مقامه بمكة ولم يتزوج إلا السيدة خديجة ، فلما هاجر إلى المدينة واتسع عمله ونشأت العلائق المدنية بينه وبين القبائل ، استدعى ذلك أن يصهر إلى عدد منها ، فكان جملة من دخل بهن إحدى عشرة ، اثنتان منهن توفيتا في حياته وهما خديجة وزينب بنت خزيمة أم المساكين ، والتسع البواقي توفي عنهن ، وهذه أسماؤهن مرتبة على حسب دخوله بهن :

١ — خديجة بنت خويلد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب : أشرف سيدات مكة وأثراهن . تزوجها قبل رسول الله رجلان أما الأول فهو عتيق بن عابد المخزومي فولدت له حارثة ، ثم مات عنها فتزوجها أبو هالة مالك بن النباش فولدت له ولداً وبنتاً ثم مات عنها .

وكانت خديجة امرأة تاجرة ذات ثروة وشرف تستأجر الرجال

في تجاراتها وتضاربهم عليها ، فلما عرفت رسول الله وما اشتهر به من أمانـة وعفة ، استأجرتـه في تجارة لها الى الشام مـع غلامها ميسرة ، فحمدت خديجة خصاله ورغبت في نـكاحه ، ولما خطبها رسول الله كان عمره خمساً وعشرين سنة وعمرها هي أربعون سنة . وبقيت عنده حتى ماتت ولم يتزوج عليها ، وجميع أولاده ﷺ منها وهم ثمانية: القاسم والطيب والطاهر وعبد الله وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة [١] ، إلا إبراهيم فمن السيدة ماريه القبطية .

خدمتها للاسلام في نشأته

ولقد قامت في عون رسول الله لما بعثه الله ، مقاماً محموداً كان له خير الأثر في التخفيف عن رسول الله ، يجـد في كنفهـا المواساة والمودة والعطف ، وتبعث فيه القوة على الدعوة الى الله ، فاذا ضـاق صـدره ﷺ من تكذيب قريش له وايذائهم وعدوانهم رجع إلى بيته حيث يجد من خديجة خير عزاء عما لقي . ولقد ماتت خديجة وهاجر رسول

وفاء الرسول لها بعد موتها

الله إلى مكة وصار له تسع نسوة ، ولم ينس خـديجة وفضلها قط ، ولم يك يشبع من ذكر لها وثناء عليها ، وليس يحفظ التاريخ مثلاً أعلى ولا أنبل في وفاء الأزواج لأزواجهن من هذا المثل الذي ضربه رسول الله من نفسه للناس :

---

(١) تاريخ الطبري ٢ : ٤٢٢ مطبعة الاستقامة

غيرة عائشة من كثرة ثنائه عليها

قالت عائشة : « ماغِرْت على أحـد من نساء النبي ما غـرت على خديجة ، وما رأيتها ولكن كان رسول الله يكثر ذكرها ، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاءً ثم يبعثها في صدايق خديجة . وربما قلت له : « كأن لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة» فيقول: « إنها كانت وكانت وكان لي منها ولد »[1] .

هذه رواية السيدة عائشة أجمل أزواجه وأحبهن إلى قلبه ، غارت من امرأة ميتة من كثرة ما عاينت من عناية النبي بها ووفائه لهـا وحسن ذكراها عنده . ولقـد كانت تأتيه العجوز فيقوم لها ويبسط لها رداءه ، فاذا استُغرب ذلك منه قال:«إنها كانت تأتينا أيام خديجة »

إكرامه صواحبها بعدموتها

وظاهر أن تعلق قلبـه ﷺ بذكرى هـذه السيدة لم يكن لغرام بجمالها قط ، لقـد أبدله الله أجمـل منها وما كانت نفسه الكبيرة ﷺ لتشبه نفوسنا ، ولكنه يثني على أمور هي أبعـد من ذلك : على نبلها ودينها ومواساتها ، ولقد كان لها في نفسه إجلال لا يوصف لما لها من حسن الأثر عليـه أيام الشدة وعنفوانها . وإليك هـذا الشاهـد مرويا أيضاً عن السيدة وفيه يبين الرسول سبب تعلقه بها ووفائـه لها خير بيان :

---

(١) السمط الثمين ص ١٦ نقلاً عن البخاري ومسلم

قالت عائشة : « كان رسول الله إذا ذكر خديجة أثنى وأحسن الثناء عليها،فغرت يوماً وقلت : « ما أكثرماتذكرها ، حمراءالشدقين، قد أبدلك الله خيراً منها » فقال : « ما أبدلني اللهخيراً منها : قد آمنت بي إذ كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني بمالها إذ حرمني الناس ، ورزقني أولادها إذ حرمني أولاد النساء »[1] .

وعلى أنها كانت تكبره خمس عشرة سنة وكانهو في فورةالشباب واكتمال الرجولة لم يتزوج إلا بعد موتها . وكانت وفاتها قبل الهجرة بثلاث سنين .

٢ — سودة بنت زمعة : من بني عامر بن لؤي من قريش : وكانت قبل النبي ﷺ تحت السكران بن عمرو، وكان هذا من مهاجرة الحبشة فتنصر ومات بها . فكافأها الله على صدق إيمانها وتحملها الهجرة في سبيل عقيدتها، وجبر قلبها عما أصابهامن تنصر زوجها فأمر نبيه فتزوجها ﷺ وبنى بها قبل عائشة[2] وتوفيت بالمدينة آخر خلافة عمر .وقيل عمرت حتى خلافة معاوية سنة ٥٣ للهجرة .

٣ — عائشة بنت أبي بكر الصديق : من تيم بن مرة بن كعب من قريش ، ولم يتزوج رسول الله بكراً غيرها . وبنى بها في السنةالثانية

---

(١) السمط الثمين ص ٢٥ عن البخاري ومسلم وانظر مسند أحمد ٦ : ١٥٠

(٢) تاريخ الطبري ٢ : ٤١١ مطبعة الاستقامة

بعد الهجرة فكان هذا الزواج خير مكافأة وتقدير وشكران لأبيها الذي بذل في سبيل الإسلام من ماله ودمه وأهله مالم يبذل أحد، وتحمل من الأذى والاضطهاد والعدوان مالم يحمل أحد حاشا رسول الله ﷺ وتوفيت عائشة سنة ثمان وخمسين [١].

٤ — حفصة بنت عمر بن الخطاب من بني عدي بن كعب بن لؤي من قريش. كانت قبله تحت خُنيس بن حذافة السهمي أحد أصحاب رسول الله ﷺ البدريين، وقد توفي بالمدينة ولم يخلف ولداً منها. ولعل الله أراد بزواج رسوله من حفصة نحواً مما كان في زواجه من ابنة أبي بكر: فقد كان إسلام أبيها عمر عزاً للدعوة وقوة لها. توفيت سنة خمس وأربعين بالمدينة ولها ستون سنة.

٥ — ام سلمة هند بنت ابي امية بن المغيرة المخزومية القرشية: تجتمع مع النبي في مرة بن كعب بن لؤي. كانت تحت ابن عمها ابي سلمة ابن عبد الأسد بن هلال أحد أصحاب رسول الله البدريين وكان شجاعاً فارساً أصابته جراحة في غزوة أحد فمات منها « وكان ابن عمة رسول الله ورضيعه [٢] » وله من أم سلمة اربعة اولاد: عمر وسلمة وزينب

---

(١) نشرنا في الشهر المنصرم سيرتها مفصلة للحافظ الذهبي وهي من أوفى السير عنها، عن نسخة فريدة في العالم بخزانة صاحب الجلالة إمام اليمن واسمها: (سير النبلاء ٢ جزء مخصوص بترجمة السيدة عائشة) مطبعة الترقي بدمشق.

(٢) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٤١٤.

ودرة ؛ فلم يضيع الله جهاد الزوجين معاً فجعل رسوله هو الخالف عليها وعلى أولادها من المجاهد الشهيد . ولما صلى رسول الله على ابي سلمة ، كبر تسع تكبيرات فقيل « يارسول الله أسهوت أم نسيت » فقال : « لم أسهُ ولم أنسَ ، ولو كبرت على ابي سلمة الفاً كان أهلاً لذلك » ثم زوج رسول الله ابنهما سلمة من ابنة حمزة بن عبد المطلب عمه عليه الصلاة والسلام[1] ودفنت أم سلمة بالبقيع سنة ستين ولها أربع وثمانون سنة .

٦ — زينب بنت خزيمة أم المساكين (وهذه كنيتها في الجاهلية) ، كانت تحت عبد الله بن جحش فقتل عنها في غزوة أحد ، فتزوجها النبي ﷺ سنة ثلاث ، وبقيت عنده شهرين او ثلاثة ثم توفيت بالمدينة ولم يمت عنده من أزواجه غيرها وغير خديجة .

٧ — جويرية بنت الحارث الخزاعية : كانت تحت مسافع بن صفوان ولم تلد له شيئاً ، فلما كانت غزوة بني المصطلق أصيبت سبيةً في سهم ثابت بن قيس الأنصاري فكلم النبي ﷺ في فدائها ، فخطبها رسول الله بعد أن أعتقها وأصدقها أربعمائة درهم ؛ وكان ذلك سنة خمس من الهجرة . فلما رأى أصحاب رسول الله ذلك ، أعتقوا من بأيديهم من الأسرى وقالوا : « أصهار رسول الله » فكانت من أعظم النساء بركة

(١) تاريخ الطبري ٢/٤١٤ .

على قومها ، أعتق بسببها مئة أهل بيت [١] وتوفيت سنة خمسين .

٨ — أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب الاموية القرشية : كانت عند عبيد الله بن جحش ، وكانا مهاجرين في الحبشة الهجرة الثانية ، فتنصر زوجها بالحبشة ومات بها . ثم أرسل رسول الله يخطبها سنة ست [٢] فرجعت مع شرحبيل بن حسنة إلى المدينة ، وكانت شديدة المحبة والاتباع لرسول الله ﷺ . وسر لهذا الزواج أبوها أبو سفيان وكان يومئذ على شركه بمكة ، ولعل ذلك اقوى ما طامن من عدائه للدعوة هو وأسرته وسائر بني امية ، فلانت قلوبهم للاسلام بعض اللين ، فكان ذلك نواة وتمهيداً لإسلامهم فيما بعد . وتوفيت بالمدينة سنة أربع وأربعين .

٩ — زينب بنت جحش : كانت عند زيد بن حارثة ربيب النبي ﷺ فطلقها ، وأراد الله أن يهدم عادة التبني الجاهلية فأمر نبيه بالتزوج من زينب بقوله : « وإذ تقولُ للذي أنعم الله عليه وأنعمْتَ عليه أمسكْ عليك زوجك واتق الله وتُخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ، فلما قضى زيدٌ منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرجٌ في أزواج أدعيائهم إذا قضوْا منهنّ وطراً وكان أمرُ الله مفعولا » [٣]

---

(١) السمط الثمين ص ١١٦ و ١١٧ وتاريخ الطبري .

(٢) شرح الزرقاني على المواهب ٣ : ٢٤٢ .

(٣) سورة الاحزاب الآية ٣٧ .

فكانت زينب تفخر على سائر أزواج النبي بقولها : « زوّجكن آباؤكن وزوجني الله من فوق سبع سماوات »[١]

وبهذا الزواج بطل أن يلحق المرء ربيبه بنسبه . وكانوا يدعون ابن حارثة هذا : زيد بن محمد ، فلما نزل قول الله : « ما كان محمدٌ أبا أحدٍ من رجالكم ولكنْ رسولَ الله وخاتم النبيين » وقوله « اُدعوهمْ لآبائهم هو أقسطُ عند الله » صاروا يدعونه زيد بن حارثة .

توفيت زينب سنة عشرين في خلافة عمر ولها ثلاث وخمسون سنة.

١٠ — صفية بنت حُيي بن أخطب من اليهود : كانت تحت سلاّم ابن مِشكم ، فلما فرغ المسلمون من غزوة خيبر ، وقعت في السبي وقد قتل أبوها وأخوها وزوجها ، وهي سيدة قُرَيظة فأسلمت ، فأراد رسول الله أن ينقذ شرفها من الأسر وأن يكرم عزها وإسلامها، ويجبر قلبها بعد فقدها زوجها وولدها وأخاها ، فأعتقها وتزوجها وكان ذلك سنة ست من الهجرة . وبقيت حتى سنة خمسين في خلافة معاوية ودفنت بالبقيع .

١١ — ميمونة بنت الحارث الهلالية : خطبها رسول الله مَقدَمه مكة معتمراً سنة سبع وبنى بها بسرَف قبل رجوعه إلى المدينة ، فلما

---

(١) السمط الثمين ص ١٠٦ نقلا عن الترمذي. وذكر الزرقاني في شرح المواهب ٣ : ٢٤٧ أن ذلك كان سنة ست للهجرة .

جاءتها خطبة رسول الله وكانت على بعير قالت : « البعير وما عليه لله ورسوله » .

توفيت بسرف في الموضع الذي بنى بها فيه رسول الله وذلك سنة إحدى وخمسين [١] في خلافة معاوية

١٢ — مارية القبطية : أهداها له المقوقس صاحب مصر في جملة هدايا ، فأسلمت ، ودخل بها رسول الله ﷺ وولدت له إبراهيم ، فأُعتقت ، وبقيت حتى خلافة عمر ، فماتت سنة ست عشرة ودفنت بالبقيع .

فجملة من دخل بهن الرسول إحدى عشرة امرأة [٢] عدا السيدة مارية القبطية : ست قرشيات وهن خديجة وسودة وعائشة وحفصة وأم سلمة وأم حبيبة ، وأربع من سائر قبائل العرب وهنّ : زينب بنت جحش الأسدية وميمونة بنت الحارث الهلالية وجويرية الخزاعية

---

(١) السمط الثمين ص ١١٥ .

(٢) ممن عقد عليهن ودخل بهن بلا خلاف. وهناك عدد من النسوة لم يدخل بهن ﷺ : بعضهن مات قبل وصولها إليه ، وبعضهن لم تتم خطبتهن ، وبعضهن طلقها قبل دخوله بها ، وفي أسمائهن وعددهن خلاف . ومن أراد الوقوف عليه فليرجع إلى (السمط الثمين ص ١٢٣ — ١٣٩ وإلى شرح المواهب للزرقاني ج ٣ ص ٢٦٠ — ٢٧١) .

وصفية الاسرائيلية ، ثم السيدة مارية القبطية [١]

سر هذا التعدد وفائدته للدعوة

هـذا وقد كان إصهاره ﷺ إلى قريش وقبائـل العرب وبني إسرائيل ذا أثر كبير في تأليف القلوب على الاسلام ، أفادت منه الدعوة اكبر الفوائد في جمـع الكلمة وتقريب أمد الوحدة إذ ذاك :

لقد كان انتشار الإسلام ونهوض الرسول بتأسيس الوحدة العربية داعيين قويين في تكثير بيوت النبي ﷺ ، فقد كثرت ضيفانه، وتعددت أسباب إصهاره إلى القبائل ، ولم يكن في هذا الإصهار شيء من المتعة النفسية له ، بل لقد كان الأمر على العكس ، وكان تعدد الإصهار لمختلف القبائـل عبئاً تطلّب من الرسول رجولة معجزة وصدراً رحباً واتساع نفس ، فأعان الله رسوله على تحمل هذه الأعباء . وكان من ذلك أن تمت الوحدة ، وتألفت القلوب ، وتغلب النبي على نفرة القبائل بهذا الإصهار .وضمن من بعده لأمته مدارس لنشر العلم والسنة

(١) من أراد زيادة اطلاع على سير أمهـات المؤمنين فليرجع إلى كتاب (السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين) للمحب الطبري فقد وفى الموضوع حقه . وليس من منهج هذا الكتاب الافاضة بمناقبهن وأخبارهن فهي مبذولة في كتب السير والطبقات ، وإنما غرضنا هنا إظهار منزلتهن ووضعهن الاجتماعي والحقوقي . هـذا وفي ترتيبهن خلاف ، وقـد أثبتنا أصح الروايات معتمـدين على ماذكر للزرقاني في (شرح المواهب) على سني زواجهن .

يتعلم بها العرب الذين أعدهم الله لإنقاذ الانسانية كيف يعاملون النساء ويترسمون بذلك سيرته معهن ﷺ . ولو كان هناك شيء من المتعة لنفسه ، أو كان له شيء من الاختيار في هذا الإصهار ، لما حرم الله عليه ما أباح لكل أمته : حرم عليه أن يطلق أحداً منهن ، أو يتزوج زيادة عليهن ، مع العلم أن كلاً من أمته يستطيع أن يستبدل بزوجه من تعجبه . هذا ولا ننسى أنهن كلهن — إلا عائشة — ثيبات ، كن قبله تحت أزواج ماتوا عنهن .

الفصل الثّاني

في التشريع الخاص بأمهات المؤمنين

نزل الوحي مثبتاً لنساء النبي حقوقاً وأحكاماً وآداباً أخذ بهاالناس، فكنّ بذلك سبباً في نزول تشريع خاص بهن في مناسبات مختلفة . وبقي هذا الوحي يتلى بعد مماتهن جميعاً إلى قيام الساعة : إيذاناً بمكانة المرأة في الاسلام ، وتشريفاً للنساء عامة ، إذ لم يكتف الاسلام بأن جعل للمرأة شخصية (حقوقية) مستقلة كالرجل ، بل زاد بأن رفع المختارات منهن إلى درجة من التقديس : دون الانبياء وفوق الاصحاب .

وإليك أُمهات المسائل اللائي كانت مناط تشريع بحقهن :

أ — صيانة مقامهن عن الابتذال وحرمة نكاحهن بعده : كان كثير من العرب غافلاً عن التزام الادب اللائق ببيوت الرسول ، فكانوا يجلسون عنده في كل وقت ، وربما أطالوا فيتأذى الرسول ويستحيي أن يصرفهم ، وقد وقعت في ذلك حوادث نحن ذاكروها لك :

١ — لما تزوج رسول الله زينب بنت جحش أولم بخبز ولحم وأرسل أنساً يدعو الناس ، فيجيء قوم فيأكلون ويخرجون، ثم قوم فيأكلون ويخرجون ، فدعا أنس حتى ما يجد أحداً فقال :«يانبي الله لم أجد أحداً أدعوه»قال: « ارفعوا طعامكم » ثم جلس المدعوون يتحدثون ، فأخذ الرسول كأنه يتهيأ للقيام ، فلم يقوموا ، فلما رأى ذلك قام وقام من القوم من قام ، وقعد ثلاثة ثم انطلقوا ، فجاء أنس فأخبر النبي أنهم انطلقوا، فجاء حتى دخل،وذهب أنس يدخل فألقي دونه الحجاب »[١]

٢— قالت عائشة :« كنت آكل مع النبي ﷺ في قعب ، فمر عمر، فدعاه ، فأكل ، فأصابت إصبعه إصبعي فقال : « أوّه لو أطاع فيكن ما رأتكن عين » فنزلت آية الحجاب »[١]

٣ — روى ابن عباس : دخل رجل على النبي ﷺ فأطال الجلوس ، فخرج النبي ثلاث مرات ليخرج فلم يفعل ، فدخل عمر فرأى الكراهية في وجهه فقال للرجل : « لعلك آذيت النبي » فقال النبي ﷺ : « لقد قمت ثلاثاً لكي يتبعني فلم يفعل » فقال له عمر : « يارسول الله لو اتخذت

---

(١) لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي، وانظر : السمط الثمين ص١٠٨ وتاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص ١٦ ، ١٧ وقد أثبتّ زيادة عن شرح المواهب للزرقاني ٣/٢٤٦

حجاباً ، فان نساءك لسن كسائر النساء وذلك أطهر لقلوبهن فنزلت آية الحجاب »[١]

٤ ــ قال محمد بن كعب : كان رسول الله ﷺ إذا نهض إلى بيته بادروه فأخذوا المجالس ، فلا يعرف ذلك في وجه رسول الله ولا يبسط يده إلى الطعام استحياء منهم فعوتبوا في ذلك [١]

هذه روايات مختلفة في سبب نزول آية الحجاب ولعلها كلها وقعت ووقع أيضاً حادث أكثر خطراً وإيذاء :

٥ ــ روى ابن عباس : أن رجلاً أتى بعض ازواج النبي ﷺ فكلمها وهو ابن عمها ، فقال النبي له : « لا تقومنّ هذا المقام من بعد يومك هذا » فقال : « يارسول الله إنها ابنة عمي ، والله ما قلت منكراً ولا قالت لي » قال النبي ﷺ : « قد عرفت ذلك ، إنه ليس أحد أغير من الله ، وإنه ليس أحد أغير مني » فمضى الرجل ثم قال : « يمنعني من كلام ابنة عمي ، لأتزوجنّها من بعده » [٢] فأنزل الله الآية الآتية بعد ، وأعتق ذلك الرجل رقبةً وحمل على عشرة أبعرة في سبيل الله وحج

---

(١) انظر المصادر السابقة .

(٢) لباب النقول

ماشياً ، توبةً من كلمته .

وهناك روايات أقصر من هذه إلا أنها سمت الرجل وهو طلحة بن عبيد الله أحد العشرة المبشرين في الجنة ، وسمت أم المؤمنين عائشة [١]

أنزل الله على النبي في هذا الحادث والحوادث قبله هذه الآية الجامعة :

« يا أيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتَ النبيّ إلا أنْ يؤذنَ لكمْ إلى طعامٍ غيرَ ناظرينَ إناه [٢] ولكن إذا دُعيتمْ فادخلوا ، فاذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديثٍ ، إنّ ذلكمْ كان يؤذي النبيَّ فيستحْيي منكم والله لايستحْيي من الحق ، وإذا سألتموهنَّ متاعاً فاسألوهنَّ منْ وراء حجابٍ ذلكمْ أطهرُ لقلوبكم وقلوبهنَّ ، وما كان لكمْ أنْ تؤذوا رسولَ اللهِ ولا أنْ تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكمْ كان عندَ اللهِ عظيماً » [٣]

ثم ذكر الذين يجوز لنساء النبي مقابلتهم من غير حجاب فقال :

«لاجناح عليهنَّ في آبائهنَّ ولا أبنائهنَّ ولا إخوانهنَّ ولا أبناء

---

(١) لباب النقول

(٢) ناظرين إناه : منتظرين نضجه

(٣) سورة الأحزاب الآية : ٥٣

إخوانهنّ ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهنّ ولا ما ملكت أيمانهنّ واتقينَ اللهَ إنّ اللهَ كانَ على كل شيء شهيداً [١] ».

ب – *حجابهن خارج البيوت* : خرجت أم المؤمنين سودة بنت زمعة بعد ماضرب الحجاب لحاجتها ، وكانت امرأة جسيمة لاتخفى على من يعرفها ، فرآهـا عمر فقال : « ياسودة أما والله ما تَخفيْن علينا ، فانظري كيف تخرجين» فانكفأتْ راجعة ورسول الله في بيت عائشة، وإنه ليتعشى وفي يده عِرْقٌ ، فدخلتْ وقالتْ : « يا رسول الله إني خرجت لبعض حاجتي فقـال لي عمر كذا وكذا » فأوحى الله إليـه الآية التالية . ثم رفع عنه الوحي وإن العرق في يده ماوضعه ، فقال : « إنه قد أذن لكن أن تخرجن لحاجتكن . » [٢]

كان نساء النبي ﷺ يخرجن بالليل لحاجتهن وكان ناس من المنافقين يتعرضون لهن ظناً منهم أنهن إماء ، فيؤذَين، فشكون ذلك ، فقيل للمنافقين ، فقالوا « إنما نفعله بالإماء » فأنزل الله هـذه الآية : « ياأيها النبي قلْ لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يُدْنينَ عليهن منْ

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٥٥

(٢) لباب النقول . وقال : أخرجه البخاري عن عائشة .

جلابيبهنّ ، ذلك أدنى أن يُعرَفنَ فلا يؤْذينَ وكانَ اللهُ غفوراً رحيماً »(١)

١ — حادث التخيير واختصاصهن دون سائر الصحابة بمضاعفة الأجر

طلب نساء الرسول ﷺ منه النفقة ، ولعلهن أردن عيشاً أطرى من عيشهن ، فحزن رسول الله واعتزلهن شهراً ، فأنزل الله على نبيه يأمره أن يخيرهن بين الطلاق والعيش معه على حاله تلك ، وهـذه رواية السيوطي عن مسلم وأحمد والنسائي : « أقبل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ فلم يؤذن له ، ثم أقبل عمر فاستأذن فلم يؤذن له ثم أَذن لهما فدخلا والنبي ﷺ جالس وحوله نساؤه وهو ساكت ، فقال عمر « لأكلمنّ النبي ﷺ لعله يضحك » فقال عمر : « يارسول الله لو رأيت ابنة زيد (امرأة عمر) سألتني النفقة آنفاً فوجأت عنقها ! » فضحك النبي ﷺ حتى بدا ناجذه وقال : « هنّ حولْي يسألنني النفقة » فقام أبو بكر إلى ابنته عائشة ليضربها ، وقام عمر إلى حفصة ، كلاهما يقول : « تسألان النبي ﷺ ماليس عنده ؟ ! » وأنزل الله الخيار ،

تخيير الرسول أزواجه

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٥٩ الجلباب: الملاءة. والإدناء : الارخاء على الوجه. فكان النساء يحتجبن ولا يظهرن إلا عيناً واحدة يرين بها الطريق صيانة لمقامهن عن الابتذال .

فبدأ النبي بعائشة فقال : « إني ذاكرلك أمراً ماأحب أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك » قالت « ماهو ؟ » فتلا عليها :

«ياأيها النبيُّ قلْ لأزواجك : إن كنتنّ تردنَ الحياةَ الدنيا وزينتها فتعالينَ أمتعْكن وأسرحكنّ سَراحاً جميلاً . وإن كنتنّ تُردن اللهَ ورسوله والدارَ الآخرة فان الله أعدّ للمحسناتِ منكنّ أجراً عظيماً [1] . »

اختيارهن الله ورسوله

قالت عائشة : «أفيك أستأمر أبوي ؟! بل أختار الله ورسوله» [2] وكان جواب صواحبها مثل جوابها : كلهن اختار الله ورسوله والدار الآخرة. فرفع الله مقامهن وجعل لهن على الحسنة ضعف أجر غيرهن من الصحابة الكرام ، وكذلك ضاعف لهن العذاب إذا أخطأن ! ، وذكّرهن بعلو درجتهن وما يليق بهن من لزوم البيوت وتقوى الله ومنّ عليهن إذ جعل بيوتهن مهابط الوحي والرحمة فقال :

مضاعفة أجرهن

«يانساءَ النبيِّ من يأتِ منكنّ بفاحشةٍ مبيّنةٍ يضاعَفْ لها العذاب ضعفينِ وكان ذلك على اللهِ يسيراً . ومن يقنتْ منكن لله ورسوله وتعملْ صالحاً نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً . يانساءَ النبي لستنّ كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعْن بالقول فيطمعَ الذي في

(١) سورة الأحزاب ، الآيتان ٢٨ و ٢٩

(٢) لباب النقول في أسباب النزول .

قلبه مرض وقُلنَ قولاً معروفاً . وقَرْنَ في بيوتكنّ ولا تبرجْنَ تبرجَ الجاهلية الأولى وأقمن الصلاةَ وآتين الزكاةَ وأطِعْنَ اللهورسوله، إنما يريدُ اللهُ ليذهبَ عنكمُ الرجس أهلَ البيتِ ويطهرَكمْ تطهيراً، واذكُرْنَ مايُتلى في بيوتكنّ من آياتِ اللهِ والحكمةِ إن اللهَ كان لطيفاً خبيراً »[1]

د — تحريم الله على نبيه طلاقهن أو الزيادة عليهن :

بعد أن هجر النبي نساءه ـ على ماتقدم ـ ثم أمره الله أن يخيّرهن، فخيّرهن فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة ؛ بعد ذلك حرم الله على رسوله ان يطلق منهن أحداً أو يتزوج عليهن ، وهذا حكم خاص به ﷺ لأنه لم يكن في دواعي زواجه شيء من حظ المتعة النفسية ، فاذا كان لأي رجل من أمته أن يطلق زوجه ويتزوج بأجمل منها في أي ساعة شاء ، فان الله قد اصطفى لرسوله هؤلاء التسع لينقلن إلى أمته من بعده سيرته وسنته وهديه ، وشرّفهن على النساء بأن جعل زواجهن من اختيار الله ؛ ولما اخترن الله ورسوله والدار الآخرة ، حرم الله على نبيه الزيادة عليهن أو تطليق أحد منهن ونزل في ذلك :

---

(١) سورة الأحزاب الآيات : ٣٠ — ٣٤

« لا يحلُّ لك النساء من بعد ، ولاأن تَبدَّل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنُهن »[١] فلزم أزواجَه لقبُ أمهات المؤمنين ، وخلّد الله بذلك شرفهن إلى الأبد .

٥ — تقرير أمومتهن لعامة المسلمين بنص القرآن :

أنزل الله على نبيه هذا القول الكريم : « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهمْ وأزواجُه أمهاتهُمْ »[٢] فصرن بهذا النص أمهات لكل من كان مؤمناً على الإطلاق.وأصبح الخلفاء من بعده يحترمونهن احترامهم لأمهاتهم ، حتى صار أبو بكر نفسه على جلالة قدره ينادي بنته السيدة عائشة : « ياأمّه » . وليس يثبت بهذا النص إلا حكم واحد هو تحريمهن على غير النبي بعد وفاته . وهنا أترك الكلام لأحد كبار الفقهاء المجتهدين يفصل هذا الحكم ، قال الامام ابن تيمية : « قد أجمع المسلمون على تحريم نكاح هؤلاء (يعني أزواج النبي ﷺ) بعد موته على غيره ، وعلى وجوب احترامهن فهن أمهات المؤمنين في الحرمة والتحريم ولسن أمهات المؤمنين في المحْرمية : فلا يجوز لغير أقاربهن الخلوة بهن ولا السفر بهن كما يخلو الرجل ويسافر بذوات محارمه ، ولهذا أُمرن بالحجاب فقال الله تعالى : « يا أيها النبي قلْ لأزواجك

---

(١) سورة الأحزاب ٣٣ الآية ٥٢

(٢) سورة الأحزاب ٣٣ الآية ٦

وبناتك ونساءِ المؤمنين يُدْنِينَ عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أنْ يُعرفْنَ فلا يؤذَيْنَ »[١] وقال تعالى « وإذا سألتموهنَّ متاعاً فاسألوهنَّ من وراءِ حجابٍ ، ذلكُمْ أطهرُ لقلوبكمْ وقلوبهنَّ وما كان لكُم أن تؤذوا رسولَ اللهِ ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إنَّ ذلكُمْ كان عندَ اللهِ عظيماً[١] »

أمهات في التحريم دون المحرمية

ولما كنَّ بمنزلة الأمهات في حكم التحريم دون المحرمية ، تنازع العلماء في إخوتهن : هل يقال لأحدهم : (خال المؤمنين) ؟... من علماء السنة من قال لا يطلق على إخوة الأزواج أنهم أخوال المؤمنين ، فانه لو أطلق ذلك لأطلق على أخواتهن أنهن : خالات المؤمنين ، ولو كانوا أخوالاً وخالات لحرم على المؤمن أن يتزوج خالته ، وحرم على المرأة أن تتزوج خالها ، وقد ثبت بالنص والإجماع أنه يجور للمؤمنين والمؤمنات أن يتزوجوا أخواتهن وإخوتهن كما تزوج العباس أم الفضل أخت ميمونة بنت الحارث (أم المؤمنين) وولد له منها عبد الله والفضل وغيرهما ، وكما تزوج عبد الله بن عمر وعبيد الله ومعاوية وعبد الرحمن بن أبي بكر ومحمد بن أبي بكر من تزوجوهن من المؤمنات ، ولو كانوا أخوالاً لهن لما جاز للمرأة أن تتزوج خالها .

---

(١) مر الكلام على هاتين الآيتين وسبب نزولها آنفاً ص ٧٧

قالوا : وكذلك لايطلق على أمهاتهن أنهن جدات المؤمنين ولا على آبائهن أنهم أجداد المؤمنين ، لأنه لم يثبت في حق الأمهات جميع أحكام النسب وإنما يثبت الحرمة والتحريم . وأحكام النسب تتبعض كما يثبت بالرضاع التحريم والمحرمية ولا يثبت بها سائر أحكام النسب . وهذا كله متفق عليه »[١] اهـ

هذا ولا بأس أن نشير زيادة على ماقال ابن تيمية إلى أنهم اختلفوا هل يقال لإحداهن : أم المؤمنات كما يقال لها أم المؤمنين ؟ فذهب قوم إلى أن المؤمنات داخلات في (المؤمنين) على التغليب ، وذهب آخرون إلى أنهن أم الرجال فقط نظراً لما بينهن وبين الرجال من التحريم ولا شيء من ذلك بينهن وبين النساء ، والنساء لايدخلن في خطاب الرجال إلا لقرينة . واستدلوا على ذلك بقول السيدة عائشة نفسها : فقد قالت لها امرأة « ياأمه » فقالت : « لست لك بأم إنما أنا أم رجالكم »[٢] على أن هناك نقلاً عن أم سلمة تقول فيه : « أنا أم رجالكم ونسائكم . »

عظم حرمتهن في نفوس المسلمين

وتتابع إجماع المسلمين على حرمتهن وتحريمهن طبقة بعد طبقة ، لم

(١) منهاج السنة ١٩٨/٢ وانظر تاريخ دمشق لابن عساكر (مخطوطة دار الكتب الظاهرية برقم ٣٣٨٠/١٥ الورقة ٣٤٩)

(٢) شرح المواهب ٢١٧/٣ وطبقات ابن سعد ٤٤/٨ ومسند أحمد ١٤٦/٦ وفيه « لست بأمكن ولكني أختكن »

يقتصر ذلك على طائفة دون طائفة [١] حتى الخوارج أنفسهم وهم الذين

(١) أردت أن أعرف وفاء بحق البحث وتحرياً للحق الخالص ، رأي الشيعة — وهي ثانية الطوائف الاسلامية كثرة وانتشاراً — في أمهات المؤمنين ، ولم أشأ أن أستقل بالتبعة ، فكتبت إلى مفتيهم الاكبر في ديارنا الشامية : الشيخ الجليل السيد محسن الامين العاملي في الخامس عشر من ذي الحجة سنة ١٣٦٢ هـ أسأله أسئلة أولها :

« ماهورأي الشيعة المتفق عليه : في أمهات المؤمنين عامة ، مستنداً إلى المصادر الموثوق بها ، المجمع على احترامها عندهم . » فوردت أجوبته في كراس مؤرخ في الثالث من المحرم الحرام سنة ١٣٦٣ هـ وهاك منها جواب السؤال المذكور :

قال : « أما الجواب عن الأول فيمكنني في هذه المجالة أن أبين لكم خلاصة عقيدة الشيعة المتفق عليها في نساء الأنبياء عامة ، وفي أمهات المؤمنين نساء النبي ﷺ خاصة :

يعتقد الشيعة وجوب تنزيه الأنبياء عن جميع العيوب والنقائص ، سواء أكان ذلك في افعالهم كالاكل على الطريق ومجالسة الاراذل ، او صناعاتهم ككونه حائكا او حجاماً او زبالا ، او أخلاقهم كالحقد والحسد والجبن والبخل ، او في أجسامهم كالبرص والجذام ، او عقولهم كالجنون والبله ، او في الخارج عنهم كدناءة الآباء وعهر الامهات او الأزواج .

فتحصل من ذلك : أن زوجة النبي يجوز ان تكون كافرة كما في امرأتي نوح ولوط عليهما السلام ، ولا يجوز ان تكون زانية ، لأن ذلك من النقائص التي تلحق بالنبي فتوجب سقوط محله من القلوب وعدم الانقياد لأقواله وافعاله ، وذلك ينافي الغرض المقصود من الرسالة ، وحينئذ فقوله تعالى في حق امرأتي نوح ولوط : « فخانتاهما » يراد منه الخيانة بغير ذلك ولا عموم في لفظ الخيانة —

كانوا مع علي في حربه عائشة وأصحاب الجمل، لم يطيقوا أن يسمعوا كلمة نابية وردت في سؤال حتى سدوا آذانهم ، وإليك البيان :

– اما اعتقادهم في خصوص أزواج النبي ﷺ فهو مانطق به القرآن الكريم واتفق على نقله أهل الآثار والاخبار دون ماانفرد بـه بعضهم ولم يقم برهان على صحته مما روي لأمور سياسية في عصر الملك العضوض او انفرد به شذاذ لا عبرة بهم . هذا هو اعتقادهم المتفق عليه ومن نسب إليهم سوى ذلك فقد أخطأ فأزواج النبي ﷺ ، وحرمة نكاحهن من بعده: « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم » « وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً » وان الزوجيـة للنبي ﷺ لاترفع عقـاب المعصية بل تضاعفه كما تضاعف ثواب الطاعة « يانساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين» « ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين » ، « يانساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن »

وإن زوجية المرأة للنبي لا تنفعها مع سوء عملها ، كما ان زوجيتها للكافر المدعي الربوبية لا تضرها مع حسن عملها : « وضرب الله مثلاً الذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين . وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله » وان بعض أزواجه ﷺ أفشت سره ، وإن اثنتين منها قـد صغت قلوبهما ومالت عن طريق الطـاعة وفعلتا مايوجب التوبة ، وأنهما تظاهرتا عليه : « وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجـه حديثاً فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرّف بعضه وأعرض عن بعض.. »

كان أصحاب النخيلة (وهم طائفة من الخوارج على علي، وهذا الحوار كان بعد صفين) قالوا لابن عباس: «إن كان علي على حق لم يشكك فيه، وحكّم مضطراً، فما باله حيث ظفر لم يسْبِ؟؟» فقال لهم ابن عباس: «قد سمعتم الجواب في التحكيم، فأما قولكم في السباء: أفكنتم سابين أمكم عائشة؟؟!!» فوضعوا أصابعهم في آذانهم وقالوا: أمسك عنا غرب

ــ ثم قال: «إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير. عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن..» الآية. وروى الطبري في تفسيره روايات كثيرة والبخاري في صحيحه أن المتظاهرتين كانتا عائشة وحفصة، وأن نساء النبي ﷺ فعلن مايوجب اعتزاله إياهن تسعة وعشرين يوما حتى نزلت آية التخيير: «ياأيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا. وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيما.»

ويعتقدون أن أفضل أمهات المؤمنين خديجة بنت خويلد وأن من المحسنات أم سلمة.»

انتهى جوابه على سؤالي الاول. ومع أن السيد لم يذكر في هذا الجواب من المصادر الشيعية الموثوق بها عندهم شيئاً كما رجوت، لا يسعني إلا أن أعد هذا الجواب منه ــ وهو مفتي الشيعة الاكبر في الشام ــ معبراً عن عقيدة الشيعة الرسمية. وأنت ترى أنها لاتختلف في شيء البتة عن عقيدة أهل السنة.

لسانك يابن عباس فانه طلق ذلق غوّاص على موضع الحجة[١] » .

حتى التي غامرت في السياسة ما غامرت ، وأصبح لهـا خصوم كثيرون من المسلمين ، لم يقر الرأي العام الاسلامي أن يقصر أحد في واجب الحزن عليها بعـد وفاتها إذ كانت أماً لجميع المؤمنين : ذكر ابن سعد في طبقاته أن أحد الأكابر سأل قادماً : « كيف حزن الناس على عائشة ؟ » فأجابه : « كان فيهم وكان » يعني أن منهم من لم يحزن فقال: « أما إنه لا يحزن عليها إلا من كانت أمـه »[٢] يريد أن يقول : من لم يحزن عليها فليس بمؤمن . وأصرح من هـذا جواب ابن الزبير وقـد سأله الحرورية (الخوارج) رأيه في أبيه وفي طلحـة « وقد بايعا علياً ثم نكثا ... وأخرجا عائشة تقاتل .. » فكان إخراجهما عائشة من أشنع ما فعـلا ، في رأي الخوارج : إذ ابتـذلا باخراجها حرمـة صانها الله ، فأجـاب ابن الزبير : « ومهما ذكرتموهما به فقد بدأتم بأمكم عائشة ، فان أبى آبٍ أن تكون له أماً نبذ اسم الايمان عنه ، قال الله عز وجل وقوله الحق : « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهمْ وأزواجـه أمهاتهم »

---

(١) الـكامل للمبرد ٩/٥٧٧ (أوروبة)

(٢) طبقات ابن سعد ٨/٥٤

فنظر بعضهم إلى بعض وانصرفوا[١] . وإن أردت أن تعرف كيف ينظر أجلاء الصحابة الفحول الى أمهات المؤمنين فتروّ هذا الخبر زيادة على ما تقدم :

صلى ابن عباس الصبح ، فقيل له : ماتت فلانة (لبعض أزواج النبي) ، فسجد ، فقيل له : « أتسجد هذه الساعة ؟ » فقال « أليس قال رسول الله : (إذا رأيتم آية فاسجدوا) ؟ فأي آية أعظم من ذهاب أزواج النبي ﷺ . »[٢]

---

(١) الكامل للمبرد ١٠/٦٠٨ (اوروبا)

(٢) السمط الثمين ص٧ وانظر زاد المعاد على هامش شرح المواهب: ١/١٣٦ - ١٣٧ وذكر ابن الجوزي في كتابه عن عمر بن الخطاب ص ١٥٦ أن عمر فرض لأزواج رسول الله ﷺ عشرة آلاف إلا جويرية وصفية وميمونة ، فقالت عائشة : « إن رسول الله كان يعدل بيننا » فرجع عمر إلى عمل رسول الله وعدل بينهن في العطاء .

الفصل الثالث

في إجمال سيرته معهن

لقي أزواج النبي ﷺ من حسن رعايته وجميل عنايته ما كان مضرب المثل ، وكان ينتهج معهن نهجاً كاله عطف وصبر وحلم، ليتخذ الناس من هذا النهج قدوة يسيرون عليها في معاملة النساء وقد قال : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي ».

كان يتعهدهن كل يوم : يطوف عليهن أو يجمعهن عند صاحبة النوبة يحدثهن ويلاطفهن وربما سمر [1] معهن ثم يبيت عند صاحبة النوبة ، ويقسم بينهن قسماً عادلاً لايفضل واحدة على واحدة في القسم،وكان شديد الخوف من الله أن يخطىء في العدل بينهن: يَقْسم ويقول :«اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما لاأملك » [2] يعني من ميل قلبه إلى بعض أكثر من بعض . كل ذلك كان حرصاً على

---

(١)حفظت كتب الحديث شيئاً من هذا السمر الشائق ، فانظر مثلا في السمط الثمين (ص ٨) تحديثه نساءه حديث النفر الذين خطبوا المرأة وجعلوا صفاتهم إلى أحدهم، ليصف لها كل واحد منهم لتأخذمنهم من تحب فتتزوجه بعدأن سمعت صفته.

(٢) السمط الثمين ص ٧

تأدية حقهن وجبر قلوبهن ، وتعليماً لأمته أن يبالغوا في تحري العدل بين زوجاتهم. فاذا سافر « أقرع بين نسائه ؛ فأيتهن خرج سهمها سافر بها » وكان يلحق المرأة منهن يوم وليلة في كل تسعة أيام ، إلا عائشة : فان سودة لما كبرت وهبت يومها لها ابتغاء مرضاة الرسول .

وعن طريق أمهات المؤمنين عرفنا خلقه ﷺ وسيرته في بيته معهن :

سئلت عائشة : « ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته ؟ » قالت « كما يصنع أحدكم : يخصف نعله ويرقع ثوبه »[١] وزادت في رواية « ويرقع دلوه ويحلب شاته ويخدم نفسه »[٢] ولقد وصفه خادمه أنس بقوله : « خدمت النبي ﷺ عشر سنين فما قال لي أف قط ، ولا قال لشيء صنعتُه : لِمَ صنعتَه ؟ ولا لشيء تركته : لم تركته ؟ »[٣]

وسئلت أيضاً عائشة : « كيف كان رسول الله إذا خلا في بيته ؟ » قالت : « كان ألين الناس بساماً ضحاكاً ، لم ير قط ماداً

---

(١) مسند أحمد ١٠٦/٦ وفي السمط الثمين ص ١١ هذه الزيادة « يشيل هذا ويحط هذا ويخدم في مهنة أهله ، ويقطع لهم اللحم ويقم (يكنس) البيت ويعين الخادم في خدمته ! »

(٢) شرح المواهب للزرقاني ٢٦٣/٤

(٣) الجزء نفسه ص ٢٦٢

رجليه بين أصحابه [١] » وسئلت: « كيف كان خلق رسول الله ﷺ في أهله ؟ » قالت : « أحسن الناس خلقاً : لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ولا سخّاباً في الأسواق ولا يجزي بالسيئة مثلها ، ولكن يعفو ويصفح » [٢] ، « ماضرب رسول الله ﷺ خادماً له قط ، ولا ضرب بيده إلا أن يجاهد في سبيل الله ، ومانيل منه شيء فانتقمه من صاحبه إلا أن تنتهك محارم الله عز وجل فينتقم لله عز وجل ، وما عُرض عليه أمران أحدهما أيسر من الآخر إلا أخذ بأيسرهما إلا أن يكون مأثماً ، فان كان مأثماً كان أبعد الناس منه [٣] » .

احتمل الرسول كثيراً في حسن معاملته ولطفه معهن وفي سبيل تطييب قلوبهن ولقد نعمن بعطفه وعشن في جنابه العيش الطيب الهنيء ووسعهن قلبه الكبير حتى كان لهن الأب والمعلم والزوج معاً . ولقد أعنّه على أمره بما وسعهن: فكن يعلمن النساء السنة والدين ، ويخرجن معه في الغزوات يسقين الجرحى ويقاتلن أحياناً . ذكر الزمخشري أن أزواج رسول الله ﷺ كن « يدلجْن (يعشين بالحمل وقد أثقلهن » بالقِرَب يسقين أصحابه باديةً خدامهن (خلاخيلهن) في غزوة أُحد » . [١] ومر بك

(١) شرح المواهب للزرقاني ٤/٢٦٣

(٢) مسند احمد ٦/٢٣٦ . السخاب : كثير الصخب وهو شدة الصوت

(٣) المصدر نفسه ٦/٣١

(٤) الفائق للزمخشري ١/٢٠٢

آنفاً نموذج من وفائه ﷺ لمن مات منهن ، لقد لقين من نبل شمائله مالا يطمع ولد أن ينال بعضه من والد محب .

وبقي ﷺ كثير الاهتمام بأمرهن وكان يقول : «إن أمركن لمما يهمني من بعدي ، ولا يحنو عليكن بعدي إلا الصابرون »[1] ولم ينتقل إلى الرفيق الأعلى إلا وهو واثق من أن جميع الصحابة سيكونون لهن الأبناء البررة ، وكذلك كانوا رضي الله عنهم أجمعين .

---

(١) مسند أحمد ٦/١٠٣ والسمط الثمين ص ١١

الفصل الرابع

سيرتهن بعده وعناية الخلفاء بهن

توفي رسول الله، وعاش أزواجه بعده سنين طويلة حتى أدرك بعضهن خمسين سنة بعد وفاته، وكان الخلفاء والأمراء وعامة المسلمين يتسابقون في برهن ورعايتهن ويتنافسون في إعظامهن واحترامهن، وانقطعن بعده ﷺ إلى الصلاة والصوم والحج والصدقات.

عبادتهن

ولقد أكثرن من العبادة في حياته، ورغبن في كل نوع منها، حتى الجهاد فقد خاطبن النبي بأمره فأجابهن: « جهادكن الحج »[1]

فكانت تروى عنهن المآثر في الزهد والورع، وكان النساء والرجال يقصدونهن للتعلم والسؤال وهن يحدثن كلاً بما سمعن ورأين من قول النبي وفعله وحاله، وأصبحن أسوة لغيرهن من النسوة في التدين والانقطاع إلى الله، وكانت سيرتهن خير سيرة ينبغي أن يكون عليها نساء الأنبياء صلوات الله عليهم.

هن والسياسة

هذا أمرهن من حيث الدين والتقوى والورع، ثم اختلف اجتهادهن في أمر الدخول في المسائل العامة أو (السياسة) باصطلاح

(١) طبقات ابن سعد ٨/٥٠

عصرنا: فأما عائشة فخاضت السياسة واقتحمت الأمور العامة وأوغلت فيها أيما إيغال، وأما غيرها كأم سلمة فأنكرت عليها هذا الخوض كل الإنكار، والبواقي اعتزلن السياسة سلباً وإيجاباً واشتغلن بعبادتهن.

في عهد أبي بكر

لما كان الخليفة الأول أبو بكر رضي الله عنه أراد أزواج النبي ﷺ أن يرسلن عثمان بن عفان رسولاً إلى أبي بكر يسألنه مواريثهن من سهم رسول الله ﷺ بخيبر وفدك، فقالت لهن عائشة: «أما تتقين الله؟ أما سمعتن رسول الله ﷺ يقول: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ماتركنا:صدقة. إنما هذا المال لآل محمد لنائبتهم وضيفهم، فاذا مت فهو إلى ولي الأمر من بعدي[1]؟» فأمسكن.

في عهد عمر

فرض أبو بكر العطاء بالتسوية بين الناس وكان رأي عمر التفريق بينهم على حسب السابقة والهجرة والفضل، فلما آلت إليه الخلافة، وافتتح العراق والشام وجبى الخراج، جمع أصحاب رسول ﷺ فقال: «إني قد رأيت أن أفرض العطاء لأهله الذين افتتحوه» فقالوا: «نعم الرأي رأيت ياأمير المؤمنين» قال: «فبمن أبدأ؟» قالوا: «بنفسك»

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري (اوروبة) ص ٣٠ وانظر: الإجابة لإيراد ماأستدركته عائشة على الصحابة ص ١٦٧

قال : « لا ، ولكني أضع نفسي حيث وضعها الله ، وأبدأ بآل رسول الله ﷺ » فكتب عائشة أم المؤمنين في اثني عشر ألفاً وكتب سائر أزواج النبي في عشرة آلاف ثم فرض بعد أزواج النبي ﷺ (لبني هاشم) لعلي بن أبي طالب خمسة آلاف ولمن شهد بدراً من بني هاشم ..[1]

تفضيلهن في العطاء

ولا بأس بلفت نظرك منذ الآن إلى كلمة عمر « ولكني أضع نفسي حيث وضعها الله فأبدأ بآل رسول الله » ففيها شاهد قوي على مانختم به هذا الباب من بيان فضل أمهات المؤمنين على جميع الأصحاب بلا استثناء ، فان اعتراف عمر هذا له قيمته وخطره وحجيته .

اتخذ عمر تفضيل أزواج النبي خطة لايحيد عنها في كل فرض يفرضه للناس : ذكر الطبري أنه كان « يجعل لكل نفس منفوسة من أهل الفيء في رمضان درهماً في كل يوم ، وفرض لأزواج رسول الله ﷺ درهمين درهمين »[2]

هذا وكان عمر كثير الحدْب عليهن والرعاية لهن في الأمور الجليلة

---

(١) فتوح البلدان ص ٤٩ واليعقوبي ٢/١٧٥ وكتاب الأموال لابن سلام ص ٢٢٤ والأحكام السلطانية لأبي يعلى ص ٢٢٢

(٢) تاريخ الطبري ٣/٣٠٧ مطبعة الاستقامة

والدقيقة حتى قالت عائشة :« كان عمر بن الخطاب يرسل إلينا بأحظائنا (بحصصنا) حتى من الرؤوس والأكارع »[١] ولما قسّم خيبر خيّر أزواج النبي ﷺ أن يقطع لهن من الأرض أو يضمن لهن مئة وسق كل عام (وهو نصيب كلٍ منهن أيام النبي ﷺ) ، فمنهن من اختارت الأوسق ، ومنهن من اختارت الإقطاع [٢] فبقين مكفيات مؤونة العيش كما كن على عهد رسول الله ﷺ ، بل إن منهن من تبرمت بعطاء عمر زهداً وورعاً :

لما جاء العطاء بعث عمر إلى زينب بنت جحش بالذي لها ، فلما أدخل عليها قالت : « غفر الله لعمر ، غيري من أخواتي أقوى على قسم هذا مني » قالوا : « هذا كله لك » فقالت : « سبحان الله ! » واستترت دونه بثوب وقالت : « صبوه واطرحوا عليه ثوباً » ففعلوا فقالت لبرزة بنت رافع : « أدخلي يدك فاقبضي منه قبضة فاذهبي إلى آل فلان وآل فلان » من أيتامها وذوي رحمها ، فقسمته حتى بقيت منه بقية ، فقالت لها برزة : « غفر الله لك ، والله لقد كان لنا في هذا حق » قالت : « فلكم ما تحت الثوب » فكشفت الثوب فوجدت

(١) الطبقات لابن سعد

(٢) الخراج لأبي يوسف ١٠٦

خمسة وثمانين درهماً ، ثم رفعت زينب يدها وقالت : « اللهم لايدركني عطاء عمر بعد عامي هذا [١] » فماتت وكانت أول أزواج النبي لحوقاً به .

هذا وقد رغبت أمهات المؤمنين في الحج فاستأذنّ عمر فأبى أن يأذن لهن حتى أكثرن عليه فقال : « سآذن لكن بعد العام وليس هذا من رأيي » فلما أردن الحج جهزهن وأرسل معهن عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وأمرهما أن يسير أحدهما بين أيديهن والآخر من خلفهن ولا يسايرهن أحد ، وقال : « فاذا نزلن فأنزلوهن شعباً ثم كونا على باب الشعب لايدخلنّ عليهن أحد » ثم أمرهما إذا طفن بالبيت ألا يطوف معهن أحد إلا النساء ، فلما هلك عمر غلبن من بعده [٢] . ولو أن غيرهن طلب هذا الطلب ما لان عمر ، ولكنه رحمه الله كان شديد التعظيم لقدرهن كبير الرعاية لحرمتهن .

في عهد عثمان

وسار على سيرة عمر فيهن الخليفة عثمان بن عفان بعده ، فقد « حج بأزواج رسول الله ﷺ كما كان يصنع عمر ، فكان عبد الرحمن بن عوف في موضعه ، وجعل في موضع نفسه سعيد بن زيد : هذا في

---

(١) السمط الثمين ص ١١١

(٢) الرياض النضرة ٢/٣٣

مؤخر القطار وهذا في مقدمه [١] ، على أن منهن من كانت شديدة الصلابة في أمر الخروج من البيوت فلم تخرج أبداً . فقد ذكروا أن رسول الله ﷺ قال لنسائه عام حجة الوداع : « هذه ثم ظهور الحصر » يعني أن لا حج لكن بعد هذه الحجة ، فكان كلهن يحججن إلا زينب بنت جحش وسودة بنت زمعة كانتا تقولان في ذلك : « لا تحركنا دابة بعد أن سمعنا ذلك من رسول الله ﷺ [٢] . »

لبثت أمهات المؤمنين إلا من ذكرنا يخرجن إلى الحج كلما استطعن أيام عمر وعثمان « يختضبن بالحناء وهن حرم ويحججن بالمعصفرات [٣] » يعرف الناس لهن من الاحترام والإجلال ماخصهن الله به ، حتى إذا انقضت أيام عمر ، واشتد النفور بين عثمان وبعض الرعية ، كانت بيوتهن ملجأ الطرفين على السواء ، وكانت نصائحهن نافذة يخضع لها الكبير والصغير .

ولعل من الخير أن نثبت لك شاهداً على ذلك : حواراً دار بين أم سلمة أم المؤمنين والخليفة عثمان بن عفان . قالت أم سلمة لعثمان وهي تعظه [٤] :

---

(١) الطبري ٣/٤٢٧ مطبعة الاستقامة

(٢) السمط الثمين ص ١٠٥ وقال أخرجه أحمد

(٣) طبقات ابن سعد ٨/٤٩

(٤) أمالي الزجاجي ص ١٢٥ (المطبعة المحمودية التجارية) ١٩٣٥

« يابنيّ مالي أرى رعيتك عنك نافرين، ومن جنبك مُزْوَرّين[1] لاتعنفْ[1] طريقاً كان النبي ﷺ لحبها[1]، ولا تقتدح زنداً كان أكبأها، توخّ حيث توخى صاحباك، فانهما نكما[1] الأمر نكماً لم يظلما أحداً فتيلاً ولا نقيراً، ولا يُختلف إلا في ظنين[1] هذه حق بنوتي قضيتها إليك ولي عليك حق الطاعة » .

فقال عثمان :

« أما بعد فقد قلتِ ووعيتُ، ووصيتِ فاستوصيتُ، ولي عليك حق النصتة : إن هؤلاء القوم الغثَرة تطأطأتُ لهم تطأطؤ الدلاة ، أرانيهم الحق إخواناً، وأراهم الباطل إياي شيطاناً، أجررْتُ المرسونَ منهم رسنه، وأبلغت الراتع مسقاته، فتفرقوا عليّ فرقاً : صامت صمته أنفذ من قول غيره ، ومزين له في ذلك ، فأنا منهم بين ألسنةٍ لداد ، وقلوب شِداد ، وسيوف حداد . ألا ينهى حليم سفيهاً ؟ ألا يعظ عالم جاهلاً ؟ عذيري الله منهم يوم لاينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون.»[2]

(١) مزورين : مبتعدين . لاتعف : لاتمح . لحب : أوضح . نكما الأمر لزماه ولم يحيدا عن الحق . الظنين : المتهم .

(٢) الغثرة : السفلة والرعاع . تطأطأت : انحنيت (يريد تواضعت وخضعت). الدلاة : الذين يستخرجون ماء البئر بالدلو. المرسون : الذي عليه الرسن ، وأجره رسنه : تركه يرعى كيف شاء

الفصل الخامس

منزلتهن الاجتماعية ومشاركتهن في الأمور العامة

نشرهن العربية

لم يتح لأحد من أمهات المؤمنين أن يكون لها أدنى أثر في السياسة العامة على عهد الخليفتين أبي بكر وعمر ، فانهما كانا من الكفاية بحيث غطيا على الفحول المحنكين من الرجال فما بالك بالنساء ، لقد اقتصر شأنهن على الرواية والتحديث : يُستفتين في المسائل من أمور الدين وخاصة فيما لا يعانيه إلا النساء ، فبقين بعد وفاة الرسول مثابة لرواد الفقه وحملة الشريعة ، وهذا من حكمة الله ورحمته بهذه الامة إذ جعل من أزواج صاحب الرسالة من تعيد سيرته المطهرة خمسين سنة تنشر تفاصيلها للناس ، كأن الوحي لم ينقطع وكأنهم من أنواره في شمس لا يلمّ بها أفول ولا تحجبها ظلمة ، وليس كل السنة يتسنى للرجال معرفتها ، ولولا مانشرن منها لضاع علم كثير .

ومن رجع إلى أمّات كتب الحديث ودواوين السنة وخاصة المساند منها ، فرأى ماروى منها عن أمهات المؤمنين لهالته كثرته ،

لقد كانت بيوتهن مدارس لنشر الحديث ، وتهافت الرواة عليهن من كل جانب وتنافسوا في الأخذ عنهن كل التنافس [1] . ولقد روى عن عائشة وحدها ربع السنة — على مايقول الحاكم — وهو شيء عظيم جداً .

حتى أبو بكر وعمر وعثمان وغيرهم من كبار الصحابة كثيراً ما كانوا يسألونهن في دقاق المسائل وجلائلها .

كن مرجع الناس أيام عثمان

لكنهن لما انتشرت الأمور على عثمان آخر خلافته ، أصبحن يُقصدنَ لغير الاستفتاء والرواية والعلم ، أصبحن يقصدن من الرعية الثائرين على إمامهم (ليدخلن) في السياسة وليحملن الإمام على تغيير

---

(١) عدة من روى عن السيدة عائشة وحدها بلغوا نحو المئتين ، تجد أسماءهم في الرسالة التي نشرناها قبل شهر للحافظ الذهبي في سيرتها (سير النبلاء ٢/١١ — ١٧) وفي (الإجابة لإيراد مااستدركته عائشة على الصحابة) للزركشي (ص٤٠ وفي الحاشيه ص ٤١ ، ٤٢) هذا وخير مايصور لك مكانتهن : سمو نفوس الرواة إلى شرف الأخذ عنهن حتى استسهل بعضهم نوعا من الكذب ليعد في جملة الرواة عنهن ، جاء في (الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التوريخ ص ٩) هذه الافكوهة :

وروى سهيل بن ذكوان أبو السندي عن عائشة ـ وزعم أنه لقيها بواسط ـ.. وهكذا يكون الكذب ! فموت عائشة كان قبل أن يخط الحجاج مدينة واسط بدهر !! اهـ

خطته وإصلاح سيرته ، وصار يرسل إليهن الخليفة عثمان أيضاً ليكبحن من شماس هذه الثورة ، فلم يقصر أغلبهن في النصح لكلا الطرفين . وهذا غاية مايصل إليه نفوذ أرباب الزعامة :

لما أراد أهل الأمصار دخول المدينة في الشكوى على عمال عثمان استأذنوا أزواج النبي ﷺ وعلياً وطلحة والزبير وقالوا : «إنا نأتم هذا البيت ونستعفي من عمالنا» وشكوا إلى أمهات المؤمنين وإلى الصحابة قتل ابن أبي سرح رجلاً منهم لأنه شكاه .. الخ .

ثم آلت الامور من سيء إلى أسوأ ، وأهل الأمصار آمنون على أنفسهم إذ دخلوا باذن أزواج النبي ﷺ وسلم ، فلما اشتد الأمر وحوصر عثمان ومنع الماء ، استنجد أول ما استنجد بهن ، فصرن يسربن إليه الماء ، ووصلت إليه أم حبيبة على بغلة لها برحالة مشتملة على إداوة فقيل : « أم المؤمنين أم حبيبة » فضرب الثائرون وجه بغلتها .. الخ [1]

وكن مرجع عثمان نفسه

وحسبك لتعرف مقدار نفوذهن على الجماهير : أن مروان بن الحكم لما رأى السيدة عائشة خارجةً إلى مكة تريد الحج ، رغب إليها أن تبقى ، قائلاً لها : « يا أم المؤمنين : لو أقمت كان أجدر أن يراقبوا

(١) تاريخ الطبري

هذا الرجل . . » (١) فلم تفعل . بل إن الخليفة عثمان بن عفان نفسه يقر هذه المنزلة العظمى لهن بعمله وقوله ، ويذعن لأمرهن في نصب الولاة وعزلهم ، فقد كان في جملة الدفاع المسهب الذي أرسله — وهو محاصَر — يستنجد به المسلمين والمؤمنين ، وقد تلي في موسم الحج سنة خمس وثلاثين : قوله وهو يصف شغب الثائرين عليه ونزوله على كثير من مطالبهم :

« وجئت نسوة النبي ﷺ حتى كلمتهن فقلت : « ما تأمرنني ؟ » فقلن : « تؤمّر عمرو بن العاص وعبد الله بن قيس ، وتدع معاوية فانما أمّره أمير قبلك فانه مصلح لأرضه ، راضٍ به جنده . وازددْ عمراً فان جنده راضون به وأمّره فليصلح أرضه . . فكلُّ ذلك فعلت ... » (٢)

---

(١) المصدر السابق . ولعل أعظم ماأفسد على الخليفة الرابع أمره ، كون عائشة خصماً له ، ولولا أنها خرجت عليه مااستجابت الجماهير لطلحة والزبير ، فإنهما لم يصنعا ماصنعا يوم الجمل إلا بعائشة ، ولولا اشتغال علي بهذه الخصومة لآلت أموره إلى غير المآل المعروف . لقد قوضت رضي الله عنها بناء خلافته تقويضاً بما لها من نفوذ وحرمة في نفوس الجماهير .

(٢) الطبري ٣ ـ ٤٣٦ مطبعة الاستقامة

إلى هـذا الحد بلغت منزلتهن في المجتمع الإسلامي وفي نفوس المسلمين ولاتهم ورعيتهم . ثم كان الخلفاء بعد هذا الهرج يكتبون إليهن في المسألة من الدين ، ويذعنون لنصحهن ، ويحترمون من دخل ملتجئاً بيوتهن .

★ ★ ★

مذهب ابن حزم في تفضيلهن على سائر الصحابة

وبعـد ، فان الإمام ابن حزم الظـاهري قد ألف رسالة « في المفاضلة بين الصحابة » [1] ذهب فيها إلى أن أزواج النبي صلوات الله عليـه أفضل الخلائق بعـد الملائـكة والنبيين . واحتج لمذهبه هذا بما لاغاية بعده ، ورد كل اعتراض يمكن أن يعترض به عليـه ، مستنداً إلى النصوص الصريحة من القرآن الكريم والحديث الصحيح ، وليس يسع أحداً قرأ هذه الرسالة إلا أن يقره على دعواه . ونحن هنا إذ نحيل القارىء على رسالته تلك القيمة ، نورد منها على سبيل المثال هـذه الفقرة فقط :

---

(١) رسالة كنا عثرنا عليها مخطوطة في دار الكتب الظاهرية بدمشق، فحققناها وشرحناها خدمة لبحثنا هذا : إذ رأيناها مقصورة على هذا الموضوع وهو تفضيل أمهات المؤمنين على جميـع الصحابة . وقدمنا بين يديها دراسة مستفيضة بكراً عن الإمام ابن حزم وأصدرتها المطبعة الهاشمية سنة ١٩٣٩ م باسم (ابن حزم الأندلسي ورسالته في المفاضلة بين الصحابة)

«إنه لاتعظيم يستحقه أحد من الناس في الدنيا بإيجاب الله تعالى ذلك علينا ، بعد التعظيم الواجب علينا للأنبياء عليهم السلام : أوجب ولا أوكد من التعظيم الواجب علينا لنساء رسول ﷺ بقول الله تعالى: «النبيُّ أَوْلى بالمؤمنين مِن أنفسهم وأزواجُه أمهاتُهمْ» فأوجب الله تعالى لهن حكم الأمومة على كل مسلم . هذا سوى إعظامهن بالصحبة لرسول الله ﷺ ، فلهن حق الصحبة له كسائر الصحابة ، إلا أن لهن من الاختصاص في الصحبة ووكيد الملازمة له عليه السلام ولطف المنزلة معه والقرب منه والحظوة لديه ما ليس لأحد من الصحابة ، فهن أعلى درجة في الصحبة من جميع الصحابة . ثم فضلن جماعة الصحابة لحق زائد وهو حق الأمومة الواجبة لهن كلهن بنص القرآن . فوجدنا الحق الحق الذي به استحق الصحابة الفضل قد شركنهم فيه وفضَلنهم أيضاً ، ثم فضلنهم بحق آخر زائد وهو حق الأمومة . ثم وجدناهن : لاعمل من الصلاة والصدقة والصيام والحج وحضور الجهاد يسبق فيه صاحب من الصحابة إلا ولهن في ذلك مثل مالغيرهن من الصحابة : فقد كن يجهدن أنفسهن على ضيق عيشهن ، على الكد في العمل بالصدقة والعتق ، ويشهدن الجهاد معه ﷺ .

وفي هذا كفاية بينة في أنهن أفضل من كل صاحب [١] »

ولعلك بعد، لم تنس كلمة عمر آنفاً وقد لفتت نظرك إليها ص٩٦ وقد أشاروا عليه أن يبدأ في فرض العطاء بنفسه فقال: « لا ، ولكني أضع نفسي حيث وضعها الله، أبدأ بآل رسول الله » [٢]

* * *

---

(١) ابن حزم الأندلسي ورسالته في المفاضلة بين الصحابة ص ١٨٥ — ١٨٦

(٢) لقد بلغ من شأن هذه الطبقة (أمهات المؤمنين) ، أن أفردهن جماعة من العلمـاء بالتأليف المستقل ، فمن فعل ذلك : أبو عبيدة معمر بن المثنى ، وزهير بن العلاء العبسي والمحب الطبري وغيرهم ، انظر كتاب :(الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التوريخ) للحافظ السخاوي ص ٩٢ ، ٩٣ مطبعة الترقي بدمشق سنة ١٣٤٩ هـ

هذا ولم نطلع على شيء من هذه المؤلفـات إلا كتاب المحب الطبري فإنه طبع بالمطبعة العلمية بحلب سنة ١٣٤٦هـ واسمه (السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين). وقد اطلعت على جزء صغير مخطوط في الخزانة الظاهرية بدمشق اسمه (المنتخب من كتاب أزواج النبي للزبير بن بكار) رقمه (مجموع ٤١ ـ ابتداء من الورقة ١٢٣). وبالظاهرية ايضاً جزء فيه (تسمية أزواج النبي وأولاده) لأبي عبيدة معمر بن المثنى رقمه (عام ٤٥١٤) .

وفيها (كتاب الأربعين في مناقب أمهات المؤمنين) لأبي منصور عبد الرحمن بن عساكر أورد أربعين حديثاً في مناقبهن .

وذكر ياقوت أن لأحمد بن كامل بن خلف أحد أصحاب الطبري ، المتوفى سنة ٣٥٠ هـ كتاب « أمهات المؤمنين » - [إرشاد الأريب]

خاتمة

في حجراتهن وآخر عهد الناس بها

كان الداخل في مسجد رسول الله ﷺ على عهده ، يرى بيوتاً من جريد النخل مستورة بمسوح الشعر، مصفوفة تسع حجرات في شرقي المسجد وشماليه وقبليه ، ولم يُبْن منها شيء جهة الغرب ، ويرى لحجرة عائشة مصراعاً واحداً من عرعر أوساج ، [١] وأبواب الحجرات التسعة شارعة إلى المسجد .

بقي المصلون والزائرون من جميع الأقطار ، ينعمون بمرأى بيوت النبي هذه معتبرين خاشعين لجلال الذكرى ... إلى أن كانت خلافة الوليد بن عبد الملك ، فأمر بهدمها لتدخل في المسجد . وإليك رواية شاهد عيان :

قال عطاء الخراساني :

« أدركت حجرات أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من جريد على أبوابها المسوح من شعر أسود ، فحضرت كتاب الوليد

---

(١) وفاء الوفاء ص ٣٢٥ — ٣٢٧ وعن هذا المصدر أقوال الشهود التالية

ابن عبد الملك يُقرأ: يأمر بهدمُ حجر أزواج النبي ﷺ، فما رأيت يوماً أكثر باكياً من ذلك اليوم. وسمعت سعيد بن المسيب يقول:

«والله لوددت أنهم تركوها على حالها. ينشأ ناشىء من المدينة، ويقدم قادم من الآفاق فيرى ما اكتفى به رسول الله ﷺ في حياته، ويكون ذلك مما يزهد الناس في التكاثر والتفاخر فيها.»

وقال شاهد آخر وهو عمران بن أبي أنس:

«... فلقد رأيتني في المسجد وفيه نفر من أبناء أصحاب النبي ﷺ، وإنهم ليبكون حتى أخضل الدمع لحاهم، وقال يومئذ أبو أمامة:

«ليتها تُرِكتْ حتى ينقص الناس من البنيان، ويروا ما رضي الله لنبيه ﷺ ومفاتيح خزائن الدنيا بيده!»

ونحن نقول: ليتهم تركوها فيعتبر معتبر، ويزهد طامع، ويذكر غافل، ويخشع خاشع.

* * *

رحم الله أمهات المؤمنين، ورضي عنهن، وجزاهن عن الأمة خيراً.

ملحق

المرأة والسياسة [١]

الحكم في هـذه القضية لسنة الله في المرأة ، وما فطرهـا عليه من خصائص غريزية (فسيولوجية) وعاطفية وفكرية ؛ خصائص قاهرة لايد للانسان في تحويرها إلا حين يستطيع تحويراً في تركيب الدماغ وبنية خـلاياه ، أو حين يبدل في وظائف الأعضاء فيـذوق بأذنه أو يسمع بقدمه .

إنها فوارق بين الرجل والمرأة أزلية أبدية ، اقتضتها الحكمة الكونية العميقة التي تعنى دائماً بالتمييز الدقيق ، عناية تتطلبها عمارة هـذه العوالم القائمة على تقسيم الأعمال وتيسير كل من الـكائنات إلى ما يلائمه وما خلق له ، وكل مجتمع يحاول بُناته إلغـاء تلك الفوارق الواضحـة بين أعمـال الجنسين فمصيره إلى الاضطراب والفساد : لأن ذلك ثورة على الطبيعة ، وما كان ثورة على الطبيعة فمنه الضرر كل الضرر ؛ ولا يرجى له دوام ، وإن خُيِّل لبعض الأفراد والجمـاعات (سطحية في تفكيرهم أو تعصباً لمذهبهم) إمكان الاستمرار عليه .

والطبيعة في هـذا حكمها واحـد لا يختلف باختلاف الأمم ولا

---

(١) هنا ينتهي كتاب (الاسلام والمرأة) في طبعته الأولى ، فرأينا ـ إتماماً للفائدة ـ أن نلحق به فصلين للمؤلف من كتابه (عائشة والسياسة) لشدة علاقتهما بموضوع المرأة اليوم ـ دار الفكر

باختلاف الأعصار والأمصار ، ولا بتفاوت المجتمعات رقياً وانحطاطاً ولا بتباين الأفراد تربية وثقافة .

المرأة نظام الأسرة وسيدة البيت ، فمهما احتلت لتخرجها عما خلقت له من رعاية أطفال وبر زوج وتدبير منزل ... فانما تحاول خرقاً لقانون طبيعي ، إن أنت وفقت إلى إطالة هذا الشذوذ أزماناً فلن يخرجه العهد الطويل ولا العرف المنحرف عن أن يكون شذوذاً يقذي العين ويصدم الفؤاد .

فمن البديهي إذاً أن تكون قيادة الجيوش وإدارة المصالح العامة وتدبير الممالك وسياسة الناس ... فن الرجال الخاص كما أن الأمومة وما إليها فن نسوي محض . ولئن حفظ التاريخ شواهد عديدة في قيام المرأة بشؤون السياسة والإدارة ، إني لا أجد في هذه الشواهد كلها مايمس هذه القاعدة ، بل أقرر أنها كلها تؤيدها ، ولأي مثقف كان أن يسرد مافي حفظه من ملكات أوقائدات أوزعيمات أو مدبرات ملك أو نائبات في المجالس ... الخ ثم يستقري أحوالهن واحدة واحدة ، ويمعن فيما حف بهن ، فسيدرك أن أكثرهن كن مسيئات بتصرفهن ، عدن على بلادهن بأسوأ العواقب .

الحق أن الإدارة والسياسة تقتضيان بعداً في التفكير ، ومنطقاً

سديداً ، وحساباً دقيقاً للعواقب ، وصبراً مضنياً ، وضبطاً للعواطف وكبحاً للأهواء والنزوات . . . إلى صفات كثيرة كلها يعوز المرأة بل يعوز أكثر الرجال ، فلا عجب أن كان اضطراب الأمور ودخول المرأة في السياسة قرينين في التاريخ لا يفترقان إلا حين يدبر الأمور للمرأة وزراء حصيفون من وراء ستار ؛ ومع هذا فقلما خلت امرأة — مهما حف بها من فحول محنكين — من طامع فيها مستغل لضعفها . وما أكثر ما حفظ التاريخ من سير عروش كان الغرام هو الحاكم في ممالكها.

وهناك كلمة متداولة منذ القديم، لا أشك في أنها عصارة التجارب على الزمن ، وهي قولهم : «المرأة ريحانة وليست بقهرمانة» .

ويعجبني في ذلك حكم ظريف أصدرته الكونتس أوف أكسفورد، قالت :

« هل تستطيع أن ترى امرأة صائرة إلى منصب رئيس وزارة ؟ إني لن أستطيع أن أتصور نكبة أعظم من وضع هذه الجزر البريطانية تحت قيادة إحدى النساء في شارع دوننج رقم ١٠ » (١)

---

(١) من كتابها (في السجلات) انظر العدد ٥٦٥ من مجلة الرسالة ص ٣٦٩.
ـ هذا وأقرب عبرة منا ما وقع في فرنسا في هذه الحرب العالمية الثانية من دس المرأة أنفها في السياسة العليا وذهاب فرنسا ضحية هذا (التدخل) حتى قال أندره موروا الأديب الفرنسي الأشهر: « إن الكونتس (دي بورت).. ستذهب في —

ولنتصور نحن ـ على نسق الكونتس ـ أحوال المشتغلين بالسياسة في الشرق صحفيين وأحزاباً ووزراء ونواباً ومن يتبع هؤلاء من محترفين ومرتزقة ... ، وما ينشأ من تزاحمهم وتكالبهم على المنافع من خصومات وعداء وجدل ومهاترات وتراشق بالتهم والسباب ثم مظاهرات فيها اشتباك والتحام ،ثم ماينجم عن ذلك من قتلى وجرحى ومشوهين ومسجونين ... لنتصور ذلك وما إليه ، ولنتصور معه أن النساء يشاركن فيه الرجال بين محترفات وتابعات وداخلات في الأحزاب ومُساهمات في المهاترات الصحفية وما إليها ؛ وأن منهن أيضاً نائبات وموظفات ، وأن كلا منهن تهاجم وتدافع ،وتتلقى التهم والشناعات وترمي غيرها بأمثالها ... وقد خلت منهن بيوتهن وأصبح الرجال والأطفال (رحَّلاً مشردين) في المطاعم والمقاهي ، إذ شغلت السياسة والانتخابات من كن يقمن بادارة بيوتهم ... ولنرجع بعد

ـ التاريخ (على أنها) المرأة التي خربت فرنسا...والنساء اللواتي على غرارها أدوات هدم لأن أدمغتهن التي تحوك الدسائس وشخصياتهن التي توقع الرجال لاتعرف حداً للاتزان ...

« وهكذا أصبحت الكونتس (دي بورت) من قواد الطابور الخامس الفرنسي وأصبح صالونها مركز القيادة ». ـ ترجمة الصاوي لكتاب (مأساة فرنسا) لأندره موروا ص ١٠٣ ، ١٠٥ .

هذا التصور إلى نفوسنا : أنجد فيها تعبيراً يني بشناعة مجتمع كهذا ؟ حنانيك أيها القارىء أعف نفسك وأعفني من فظاعة هذا التصور ، وإني لأستغفر الله لي ولك من خاطر يجعل مكان أولئك المحترفين بناتنا وأخواتنا وأزواجنا وأمهاتنا: انصرفن عن رعاية أسرهن فأخذن مكان ذلك وهذا ممن نرى من خُواض المهاترات والتكالب على فتات السياسات . إن مثل هذا المجتمع خالٍ من كل كرامة وحياء ، ولن يكون منه لحياة الدعة والحنان والنبل والإنسانية أثر ما ، هذا مجتمع خسر طعم السعادة منذ انهار فيه بناء الأسر ذو الجو المحبب العطر الجميل.

لقد سارت أمم غربية راقية في أوربة وأمريكة خطوات فسيحة في تحميل النساء أعباء سياسية ، فما أظفرها ذلك بطائل ، بل كانت نتيجة التجربة أن ضج عقلاؤهم ومصلحوهم من تلك الأوضاع الشاذة الخارجة على الفِطر السليمة [1].

(١) أحدث ماقرأت في هذا الباب شكوى الدكتور (ألكسيس كاريل) حائز جائزة نوبل الطبية ، فقد نشرت له مجلة المختار من ريدرز دايجست (في العدد ٣٦ من الطبعة العربية) بحثاً عنوانه (لبن الأم حق طبيعي للطفل) هذه الأحكام التي وردت في كلامه عرضاً ، وهي مع ذلك — لقوتها في نفسه — تصور خير تصوير انحراف المجتمع الحديث عن الفطرة ، وتؤيد ـ من قرب ـ ماذهبنا إليه، قال:

« ... فالأم في هذا المصرليس لها من تعليمها ولا عاداتها مايهيئها للأمومة ومقتضياتها ... ويرى كثير من الأمهات أن عملهن ومستقبلهن وشهواتهن الاجتماعية أهم من رعاية أطفالهن ، ولا يدركن أن المرأة إنما خلقت للأمومة . —

وليس تاريخ العرب بيدع في تواريخ الأمم، فالحكم واحد كما أسلفنا فحيث رأيت انحطاطاً في إدارتنا أو تقهقراً في سياستنا أو انحلالاً في مجتمعنا، ففتش ثمة عن المرأة.

وكتابنا هذا فيه أكبر عبرة انطوى عليها تاريخنا في هذا الموضوع ولم ينجنا من العاقبة الوخيمة : عاقبة دس النساء أنوفهن في السياسة، أنْ كانت الزعيمة هنا متحلية بمزايا عبقرية قل أن يحوي مثلها رجال عديدون، ولم ينجنا كذلك رغبتها القوية المخلصة في الإصلاح وابتغاء الخير للمسلمين.

— والأم في العصر الحديث فريسة في مخالب البيئة الاقتصادية والبيئة العقلية، فقد ضرب المجتمع صفحاً عن قوانين علم الحياة، وبخاصة قانون النسل. فالبنات قد حرمن معرفة العمل الذي خلقن له وجهلن قدره في حياة البشر، بل صرن يتعلمن مايتعلمه الصبيان، وصرن بمنزلة الذكور : لهن مالهم في الحياة، وعليهن ماعليهم؛ فصار على المرأة أن تعول نفسها كما يفعل الرجل. فكيف يتأتى لعاملة في مصنع أو مكتب، أو لمدرسة أو محامية أو طبيبة أو تاجرة أو امرأة باحثة عن ملاذ الحياة أن ترضع طفلها ثلاثة أشهر أو أربعة هي الحد الأدنى للرضاعة؟» ص ٧٢، ٧٣.

هذه حسرة الرجل على اشتغال النساء عاملات أو مدرسات أو محاميات أو طبيبات ... وبعض هذه المشاغل كالطب والتدريس ضرورة اجتماعية ظاهرة، فماذا يقول وكم تبلغ شكواه ومرارته إذا بالغ النساء في الابتعاد عن الفطرة فاشتغلن نائبات أو سياسيات ؟؟.

والعرب يتداولون منذ فجر الإسلام حكمة الرسول عليه الصلاة والسلام: « لن يفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة »[1] ، وذلك جد معقول، إذ أسندوا الأمور إلى ضعيف غير ذي اختصاص.

* * *

فإذا أنت جاوزت السياسة إلى الجهاد في الإسلام. رأيت المسألة تختلف بين يديك، إذ تجد أنه ليس لأحد أن يحرم المرأة شرف الجهاد، وأنها هي والرجل سواء في المطالبة به: كل بحسب استعداده واختصاصه، فالرجال للقتال، والمرأة لتمريض الجرحى، والعناية بشؤون الجيش من نحو: إسقاء وإطعام، وغسل وخياطة — . ثم هي مع ذلك كله تحمس المقاتلين وتبصرهم العواقب السيئة التي تنتظرهم وحُرمهم إذاهم تهاونوا في الدفاع.

وللمرأة العربية في هذا الميدان الموقف المحمود الذي لايجارى، كانت فيه مضرب الأمثال بشجاعتها وحسن بلائها وإخلاصها.

---

(١) مسند أبي داوود الطيالسي ص ١١٨ الحديث ٨٧٨ (الجزء الثالث) وانظر مسند أحمد ٤٣/٥ ، ٤٧ . وفي صحيح البخاري أن أبا بَكرة كان يقول: « مانجوت من فتنة وقعة الجمل إلا لما تذكرت من قول رسول الله: لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة » وسترى أي فتنة نجا منها أبو بكرة!

وعلى هـذا درجتْ من قبلُ أيضاً في جاهليتها ، فكان إليها في الحروب التمريض والعناية بالجرحى وسقي الماء وتحميس المحاربين [١].

ثم جاء الإسلام ففتحت عينها — لما أظلتها رايته — «على رجال غير الرجال ، ومجتمع غير المجتمع ، ودين غير الدين ، فكأنها نشطت من عقال ، فشمرت عن ساعدها وأخذت من هذا الدين الجديد نصيبها الأوفى ، وكان شكرها لله عليه شكراً عمليا :

قاست في أوله ماقاسى الرجال من عذاب وهجرة واضطهاد وأذى ، ثم انتظمت في صفوف المقاتلين إعلاء لكلمة الحق ، وذوداً عن دين الله وعن رسوله ، فقاسمت الرجل شرف الجهاد ، وآبت بثوابه وكرامته ، وليس بعد بذل الروح غاية في الشكران » [٢]

صحب رسول الله ﷺ النساء في مغازيه ، وأبلين معه البلاء الحسن ، فكن نعم المعينات للمحاربين . يداوين جرحاهم [٣] ، ويحملن إليهم الماء في القرب يسقينهم ، ويتعهدن أطعمتهم ، وملابسهم وقربهم . وكن أحياناً يمارسن القتال :

---

(١) انظر كتابنا (الإسلام والمرأة) ص ٢٠ .

(٢) عن كتابنا السابق ص ٣٧ .

(٣) أقام الرسول خيمة في مسجده لرفيدة إحدى ممرضات الجيش وحمل إلى خيمتها سعد بن معاذ وهو مرتث (مثخن بالجراحة) .

في طبقات ابن سعد : «شهدت أم عمارة بنت كعب أحُداً مع زوجها غزية بن عمرو وابنيها ، وخرجت معهم بشنّ لها في أول النهار تريد أن تسقي الجرحى ، فقاتلت يومئذ وأبلت بلاء حسناً وجرحت اثني عشر جرحاً بين طعنة برمح أو ضربة بسيف . »

وتتابعت المواقف المأثورة للمرأة من بعد الرسول ، وحفظ التاريخ لنا أسماء بطلات من مجاهدات الصحابة : كنسيبة وصفية . ولن ينسى أحد جهاد خولة بنت الأزور أخت ضرار وحسن بلائها في الروم ، ولا موقف الخنساء في يوم القادسية ، وكانت واحدة من كثيرات .

وقد « قتلت أم حكيم يوم (مرج الصفّر) سبعة بعمود الفسطاط الذي بات فيه خالد بن سعيد بن العاص معرساً بها [١] » .

وذكر الطبري عن أم كثير امرأة همام بن الحارث النخعي قالت : « شهدنا القادسية مع سعد (بن أبي وقاص) مع أزواجنا ، فلما أتانا أن قد فُرغ من الناس شددنا علينا ثيابنا ، وأخذنا الهراوي ثم أتينا القتلى : فما كان من المسلمين سقيناه ورفعناه ، وما كان من المشركين أجهزنا عليه ، وتبعنا الصبيان نوليهم ذلك ونصرفهم فيه » [٢] .

---

(١) طبقات ابن سعد .. كانت وقعة مرج الصفر في المحرم سنة أربع عشرة في خلافة عمر بن الخطاب .

(٢) تاريخ الطبري ٣/٨٢ (مطبعة الاستقامة سنة ١٣٥٨ هـ) وإلى هذه الطبعة نشير فيما يستقبلك من نقول الطبري .

وإذ كانت هذه الوقعة من الخطر بحيث أنها هي الفاصلة بين العرب والفرس ، وأنها لها ما بعدها ، استعدت لها القبائل بكل ما تطيق حتى أن التاريخ ليذكر لقبيلتين من القبائل فخراً خالداً إذ أخرجتا نساءهما معهما ، فكان في قبيلة النخع - على مايذكر الطبري - سبعمائة امرأة لا أزواج لهن ، وفي قبيلة بجيلة ألف امرأة ، تزوجن جميعاً في هذه الحرب ، وكانت النخع تسمى : أصهار المهاجرين .

لقد شرع الرسول الاستعانة بالنساء في الجهاد ، وأثابهن عليه من الغنائم ، ودرج خلفاؤه من بعده على سنته ؛ حتى إذا انقضى عهد الراشدين ، وخف علم الناشئين بالسنة ، شك بعضهم في هذه الاستعانة، فكتب نجدة بن عامر الحروري إلى ابن عباس يسأله : « هل كان رسول الله ﷺ يغزو بالنساء ، وهل كان يضرب لهن سهماً ؟ » . فكتب إليه ابن عباس :

« كتبت إليَّ تسألني : هل كان رسول الله يغزو بالنساء ؟ وقد كان يغزو بهن فيداوين الجرحى ويُحْذَيْنَ (يُعْطَيْنَ) من الغنيمة»[١].

كل ماتقدم من استحباب خروج النساء ليشاركن الرجال شرف الجهاد ، هو في حال الفتح والهجوم حين يكون الجهاد فرض كفاية

---

(١) تيسير الوصول ١/٢٣٥ .

على الرجـال أنفسهم ، فأما إذا انعكس الأمر وهـاجم العـدو بلاد المسلمين أو احتلها ، فحينئـذ يصبح الجهاد فرض عين على كل مسلم ذكراً كان أم أنثى ، لايستثنى من هـذا الفرض صبي ولا امرأة ولا رجل ، نص الفقهاء في هذه الحال على أنه يجب على المرأة أن تخرج إلى القتال بلا إذن زوجها[1] . وبذلك يصبح التكليف والوجوب بدرجة واحدة على الرجال والنساء والصبيان والأحرار والعبيد لايستأذن أحد أحداً في تأدية هذا الواجب[1] .



من شأن السياسة المزالق الخفيـة الخطرة ، فهي على المرأة حـرامٌ صيانة للمجتمع من التخبط وسوء المنقلب ، أما الجهـاد فطريق لاحبة مضمونة الخير . فللمرأة أن تأخذ من هذا الشرف نصيبها الأوفى .

---

(١) انظر في ذلك : باب السير أو الجهاد في كتب الفقة مثلا : شرح الزيلعي على متن الكنز ٣/٢٤١ والحكم مشهور لأن الإسلام لايقر احتلالا لأجنبي بحال من الأحوال ولا يرضى لأهله حياة ذليلة .

عبرة الحوادث[1]

الآن ، وقد بلغت بك نهاية الحديث عن السيدة عائشة ومغامراتها السياسية وآثارها القريبة والبعيدة في حياة المسلمين ، أودعك موصياً أن تجعل بالك أبداً — كلما قرأت التاريخ — إلى عبره وتجاربه ، فتأخذ من كل شيء أحسنه ، وتربأ بنفسك وبأمتك أن تغامر في تجربة ثبت ضررها وفسادها ، وخاصة إذا كان الثمن الذي قدمناه فيها دماء عشرات الألوف . وأنا أريد أن أختم كلامي بالنص على عبرتين اثنتين من هذه العبر الكثيرة التي تعرض لقارىء هذا الكتاب : تنقذاننا مما نحن فيه اليوم من تخبط ، وتنيران لنا طريقاً طال تعسفنا في المتاهات دون أن نهتدي إليه :

أما الأولى : فهي أن المرأة لم تخلق قط لتدس أنفها في المنازعات السياسية . إن لها أن تنصح وتبصر القريبين منها بعواقب الأمور ، وليس لها أن تشارك في القلاقل والاضطرابات والفتن . إن بيدها مفاتيح خطرة في التأثير في نفوس الجماهير وفي استغلال حميتهم ونخوتهم ومشاعرهم . وهذا السلاح غير حميد في العواقب ولا يصح استعماله

---

(١) خاتمة كتاب (عائشة والسياسة) للمؤلف ، ص ٢٨٥

بحال ، وقد أبنت لك أنه لولا موقف السيدة عائشة في أمر عثمان ثم المطالبة بدمه من بعد لتغير مجرى الحوادث في تاريخنا التغير كله ، ولسارت سيراً مأموناً مطرد الرقي مباركا ، فيه الخير كل الخير للأقطار الإسلامية .

وكأن الله الذي جعل النساء لتنشئة الرجال وتربية الأجيال وإدارة البيوت ، أراد أن يعظ المسلمين عظة عملية لاتنسى ، كلفتهم كل تلك الدماء المهراقة ، وفجعتهم بالألوف من الصحابة الأجلاء المهاجرين والأنصار ومن الفحول المذاويد من أبطال الفتح وأعاظم الفقهاء وأساطين القراء ورؤوس الناس... ليعلموا : أنْ لو كان أمر من أمور الرجال الخاصة بهم يقوم بامرأة ، لقام بهذه السيدة الحصيفة التي أوتيت من المواهب والذكاء والعلم والبلاغة والصلاح ... ما لم يؤته رجال كثيرون مجتمعين ، والتي جمع الله فيها من المآثر العظام ما تفرق في العدد العديد من الفحول .

لقد خلدت حرب الجمل مناراً في تاريخ المسلمين : كلما نزغ بهم نزغ من تقليد أعمى لغيرهم من الأمم ، أو مسٌ من رجعية ذميمة ، فهبطوا بالمرأة من الصيانة إلى الابتذال ، أو همّوا أن يخرجوا بها عما خلق لها وخلقت له ... قالوا لأنفسهم : أخفقت هذه التجربة في صدر

تاريخنا ؛ فما بنا من حاجة إلى أن نعيدهـا عبثاً ، أو أن تهرق في سبيلها ثانية دماء جديدة ونخرب بيوتاً عامرة .. ومن لنا مع هذا بمثل عائشة.

إن هناك مجالاً واسعاً لنشاط المرأة حين تجـد وقتاً فاضلاً عن شؤون التربية وإدارة المنزل ، تستطيع به أن تملأ الأجواء خيراً ورحمة وإحساناً . هـذه وجوه الخير مفتحة الأبواب في وسع المرأة أن تلجها فتمارس أموراً عظاماً وتبذل مجهوداً مشكوراً يعود على أمتها بما لا يقل عما يأتيه الرجال المحسنون ثمرة وغناء وطيب أثر .

أمامها من ميـادين الخير : التمريض وإسعاف الفقيرات من بنات جنسها بالعلاج والدواء والطعـام والكساء . وفي مجتمعنا من المحتاجات مايشغل عشرات الجمعيات الخيرية من النساء ولا يفي بحاجتهن عشرات المستشفيات .

وأمامها أيضاً كفاح الجهل في بنات جنسها ، فلتنشىء لهن المعاهد ذوات المنـاهج الصالحة لتنشئة الأمهات على ألا تستعير لهـا برامج الذكور (ببعض التعديل) فقـد ثبت مع الزمن أنا حتى الآن لم نقم التعليم الصالح للبنات [١] .

---

(١) ينبغي أن تكون أكثر مواد هذا التعليم بحوثاً واسعة تجريبية في كل ما تحتاج إليه الأم في الصحة والدين وشؤون المنزل وتربية البنين وحسن العشرة ... —

وهناك أمام المرأة العناية بتربيـة اليتيمات وإنشاء (المياتم) وتعهـد أمهاتهن بالرعاية والتوجيه ثم إشاعة الثقافة الصحية بين النساء عامة .

ويجب أن ينشأ فيهن المتخصصات في جميع الفروع التي يحتاج إليها النساء والأطفال وأن يكون منهن العدد الوافي بالحاجة بحيث يسددن عوز النساء في عـلاج أمراض العين والأسنان والأمراض الداخليـة والجلدية وفي حاجات التوليد .

فان كان ولا بد من زيادة فالى المساهمة في كفاح مايتفشى في المجتمع من امتهان المرأة وإشقائها عن طريق البغاء والقمار والخمور وغيرها من المفاسد التي ضاق بشرورها المفكرون في الغرب والشرق .

لدى المرأة إذاً كثير من أعمال الإحسان تنتظر من يقوم بهـا ، وفي ذلك الخدمة المخلصة للأمة وإعمارُ البيوت وإفاضة الخير والسعادة في المجتمع ...

— لاخليطاً غيرمنسجم من نظريات الرياضيات ومعادلات الكيمياء وقوانين الطبيعة. ولنجعل التاريخ الذي يدرسنه مملوءاً بسـير الذين ضربوا المثل العليا للبشر في سمو النفس وابتغاء الخير وخدمة الناس،وفي الفضائل الحية ممن أشاعوا الرحمة والصلاح والعدل والخير ، وكانوا للانسانية حماتها الأبطـال المخلصين من رجالنا ونسائنا على السواء . ولنتجنب شحنه لهن بأخبـار القلاقل والاضطرابات والفتن والحروب ومُثُل الفساد والطغيان .

ونحمد الله على أن في فضليات نسائنا من تحاول سد هـذه الثلمة ، إلا أن نسبتهن قليلة جداً بالقياس إلى اللائي تنكبن الجادة متخبطـات على غير بصيرة ، فهجرن بيوتهن واكلات أمورهن إلى الخوادم ، وطفقن يمارسن ما لايعود عليهن وعلى أسرهن وأمتهن إلا بالضرر الخالص والإفساد الكبير : من إقامة حفلات ساهرة مخجلة ، وغشيان مجتمعات وأندية ، واقتحام أسفار ، وعقد مؤتمرات لايبلغن فيها أمراً نافعاً، بل كثيراً مايرجعن وقد سبقتهن أشأم الحوادث وأسوأ الأخبار.. مما يدع السامع ينشد قول جرير يخاطب الفرزدق :

وكنتَ إذا حللت بدار قوم　　رحلت بخزية وتركت عاراً

يقلدن بذلك نساءً ضج عقـلاء أممهن من أحـوالهن [١] ، وسقط

---

(١) وددت لو تفرغ طائفـة من علماء النفس إلى دراسة نفسية عميقة للنسوة اللاتي يطالبن بالحقوق السياسية في أوروبة وأمريكة واللاتي استغرق (نشاطهن) الاجتماعي كل وقتهن،فلعل في أعمـاق نفوسهن هوى سحيقة ومرارات أليمة وعللا وشـذوذاً ... وشعوراً صارخاً بنقص ماثل لأعينهن كيفما توجهن ، فآثرن تناسيه والهرب منه بذلك (النشاط الاجتماعي) . والطريف أن هؤلاء لم يكثر عددهن إلا في هذه السنين الثلاثين الأواخر، حين فقدت أوروبة الشعور بدفء الأسرة ونعيمها وروحها، وخلت البيوت من جوهـا الجميل الجذاب جو التآلف والاجتماع والتحابّ والتعاطف ، وأصبحت مائدة البيت قلما يجتمع عليها اثنان بعد أن تشرد أفراد الأسرة وتبعثروا في المطاعم والسهرات . فلو كان بناء الأسرة متماسكا —

مقامهن فيها من كثرة هذا التبذل والعبث ، وعدن على بنات جنسهن من البريئات بأبلغ الضرر لما لوّثن من سمعة المرأة عامة . ليتنا إذ جئنا بالتقليد اخترنا من نقلد ، ففي كل أمة من فضليات النساء النافعات مايحسن الاقتداء به ، ولكننا ننتقي أحط المبتذلات ثم نسبقهن في الابتذال أشواطاً يخجلن هن أنفسهن من السعي إليها .

وأبعد من هذا ، أننا إذا أممنا في البيت وما يحتاج إليه تدبيره على خير نسق من علم واسع غزير في الصحة والأخلاق والتربية وعلم النفس ، وسياسة الزوج والأطفال ، وسياسة المورد والمصرف ،

— متيناً حبيباً كعهده أول ، ما كان المطالبات بحقوق الانتخاب والنيابة والوزارة والتمثيل السياسي وما إلى ذلك . وإذا أساغ التصور السليم مثل هذا الشذوذ في روسية السوفيتية ، حيث كان يراد إقامة مجتمع لا بناء للأسرة فيه ، فإنه لا يتخيل بحال امرأة عضوة عاملة في اسرة ثم تكون مندفعة في تيارات السياسة وما إليها في وقت معاً .

وودت ايضاً لو شرع الفنيون من رجال الإحصاء بدراسة تعرفنا نسبة ربات الأسر اللائي أنعم الله عليهن بالزوج والولد بين الطالبات بحق الانتخاب مثلا ، ثم احصوا نسبة الجميلات منهن ، ثم ..ثم .. إني لأخشى ان تكون الكثرة الكاثرة منهن ممن حرمهن الله الجمال والزوج والولد ، فنقمن على المجتمع نظامه وعلى الأخلاق قوانينها ، وعلى السعادة وجودها على الأرض ، وآلين على انفسهن الا يضعن الحرب حتى يعم العدل وجه الأرض ، وماالعدل عندهن إلا هدم الأسر وانظمة الزواج ، وسلطان الضمير ، ومحو السعادة جملة .

ورعاية ذلك كله .. وجدنا أن علم ذلك وإتقانه وحسن إمضائه لا يكاد يبقي للمرأة القديرة ذات الموهب الجمة من فراغ أو جهد ، فكيف المتوسطات بله الضعيفات . إن ما يلزم لتصبح الأنثى امرأة (مثقفة) ليتضاءل أمامه ـ في اعتقادي ـ كل ثقافة ثانية مهما كانت رفيعة مفيدة.

وعلى المرأة الجادة بعد ذلك واجبات عديدة تستطيع أن تشارك في شرف الخدمة فيها ، على شرط واحد : هو أن تنهي كل ما عليها من واجب نحو بيتها وأسرتها أولاً ، وإنما يكون التطوع والصدقة والإحسان فيما فضل عنك من مال أو وقت أو جهد .



هذا ، ولست أقول إن المرأة لا نفع منها في باب السياسة ، أستغفر الله ، إن منها النفع كل النفع من طريق واحد فقط : هو أن تتحلى بكل فضيلة رسمها لها دينها ثم تنشّىء عليها أولادها ، فما في امرأة فرّطت بفضائل دينها من خير قط. والناس على حق حين يهملون كل أدب واحترام إذا رأوا امرأة جامحة على الآداب النسوية التي شرعها الله . والدين للمرأة هو كل شيء في نظر زوجها وولدها وأسرتها والناس أجمعين ، فاذا جاهرت بشيء من الخروج عليه فقدت كل

احترام في النفوس، وانتقلت نظرة الناس لها دفعة واحدة من التقديس إلى الزراية .

إن من لم تكن أمينة على دينهـا لن ينتظر منهـا إلا الشر والخيانة لأسرتها ووطنها ، مثلها في ذلك مثل الرجـال رق دينهم : فلما مارسوا الشؤون العامة مالئين الدنيا صخباً بدعوى إخلاصهم ووطنيتهم ، كان بلاء الأوطان منهم وحدهم إذ كانوا لا يخافون الله ولا يرعون لدين عهداً ولا لضمير حرمة ، فانطلقوا يشحنون الأرض خسفاً وكسفاً ونهباً وسلباً واحتكاراً وغلاءً وإهداراً للكرامات والقيم وتضييعاً للأمانات والحقوق . وبذلك ضربوا أسوأ الأمثـال وأظهروا وطنهم بشر المظاهر ... ومن مات وازعه الديني ونسي يوم الحساب فلن يرده عن طغيانه رادع من الناس ولا رقيب .

وأنا على يقين من أن أمهاتهم مسؤولات — إلى حد بعيد — عن هـذا الخزي الذي ارتطموا فيـه ، إذ أهملن فيهم تربية الوازع وإحياء الضمير وإشعارهم خوف الله والحساب . لقـد حرمنهم النشأة الدينيـة الفاضلة فلم يعرفوا لذتها ولم يتعهدن ذمتهم وأخلاقهم ففقدوا في أنفسهم الكرامة الإنسانية ، فلما تغلبوا وسيطروا كانوا فوق الوحوش ضراوة وشراسة وقسوة قلب ، فعم البلاء البلاد والعباد ...

إلى هـذا الحـد تبلغ جريمة المرأة الناشئة على غـير دين ، وتعظم المصيبة ، وتستفحل آثار شرورها في مستقبل الأمة وسلامة المجتمع .

فلها إذنْ آثار بعيدة في السياسة ، وهي تسدي لوطنها أعظم الفضل أو تبلغ منه أعظم النكاية ، لا بنفسها مباشرة فقط ، ولكن بنفسها وبما تنشىء عليه أبناءها سياسيي الغد من فضائل أو رذائل ، وبما تنال ضمير الناشىء ووازعه الديني من عناية أو إهمال .



ذلك ، وقد أعان على تردّي المرأة في الخروج على أنوثتها وفطرتها ، فريق من أشباه الكتاب حملوا أقلاماً ولم يحملوا إخلاصاً ولا أمانة ولا نصحاً . دفعهم الرياء المغشوش على أن يغرقوا في مجاملة المشتطة الطائشة ابتغاء العبث بها وبكرامتها ، فحمّلوها فوق ماتستطيع من السخط على الطبيعـة التي فيها لكل كائن عمل خاص . وكان حق المرأة على هؤلاء أن يأخذوا بيدها إلى مايسمدها من علم وخلق ، وإلى مايعزها في المجتمع سيدة بيت ومربية أجيال . وكان من حقها أيضاً على من يزعم نصرتها أن يمسكها عن أن يهوي بها الطيش في مكان سحيق فتفقد مالَها من حرمة هي ملاك أمرها كله في المجتمع .

ليتنا في غمراتنا اليوم نسترشد بتجارب الماضي ونسير غير متخبطين:

نبصر مواطىء أقدامنا ونتقي المزالق، ونجند كلاً في ميدانه الذي يصلح له . لقـد تداعت علينا الأمم ، وطمع فينا حتى (الصهاينة) من شذاذ الآفاق [١] ، وغزينا في أخلاقنا وبلادنا وأموالنا ... وليس في جهودنا فضل ننفقه في رد العابثين عن عبثهم ؛ فليتق الله حملة الأقلام وليصونوا الشاردات عن القطيع ، وليرجعوا بهن عن طريق وضعن أقدامهن في أوله وما آخره إلا مستقبل أسود حالك للأنثى أولاً ، ثم خراب البيوت وهـدم الأسر وارتكاس المجتمع وموت كل كرامة امتاز بها الإنسان من دون الحيوانات الدنيا .

وما الانهيار السريع الذي قضى على بعض دول الغرب العظمى في مثل لمح البصر بسبب فساد المرأة ببعيـد فينسى . ولنا فيـه درس وموعظة وبلاغ .

---

(١) نشر هـذا سنة ١٩٤٧ قبل ان ينكب العرب زعمـاؤهم ورؤساؤهم بكارثة فلسطين .

الفهرس